كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية
---

# خطاب المؤمنين في سورة الأنفال بين الشدة واللين
# (السياق، والمقاصد، والخصائص الفنية)
# مقاربة تحليلية

إعداد

د / خالد كمال محمد الطاهر

أستاذ الأدب والنقد المساعد في كلية اللغة العربية بالقاهرة

( العدد التاسع والثلاثون )

( الإصدار الثاني ـ الجزء الثاني )

( ١٤٤٢هـ / ٢٠٢٠م )

# خطاب المؤمنين في سورة الأنفال بين الشدة واللين (السياق، والمقاصد، والخصائص الفنية) مقاربة تحليلية

**خالد كمال محمد الطاهر**

**الأدب والنقد – كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر – القاهرة – مصر.**

**البريد الإلكتروني : kaltaher@azharegypt.edu.eg**

**الملخص**:

**يقدم هذا البحث دراسة تحليلية أدبية في سورة الأنفال لستة خطابات قرآنية إلى المؤمنين عامة، ومن شهد غزوة بدر الكبرى خاصة، حيث تهدف هذه الدراسة إلى بيان طبيعة هذه الخطابات من حيث الشدة واللين، والقسوة والرأفة، في ظل السياق العام للسورة متمثلا في أسباب نزولها، والسياق الخاص بكل خطاب بين سوابقه ولواحقه من آيات السورة الكريمة، مع الربط بين مقاصد الخطابات والخصائص الصورة الفنية/ القرآنية. وقد اعتمدت الدراسة على المنهج التحليلي الفني في دراسة عناصر الصورة القرآنية من المفردات والتراكيب، والأساليب، والصور الجزئية، في حين اكتفت من تحليل مظاهر التصوير القرآني بالقيم الصوتية الكامنة في الفاصلة القرآنية والبناء الصوتي لمفردات الخطاب، ذلك للإجابة عن سؤال: ما الحكمة من المغايرة بين المتوقع والواقع من أسلوب الخطاب في سورة الأنفال؟**

**الكلمات المفتاحية:** سورة الأنفال – الخطاب– السياق– المقاصد– الصورة القرآنية– الصورة الفنية– القيم الصوتية– غزوة بدر.

# *The discourse of the believers in the Noble Qur'an between hardness and softness - context, objectives, and characteristics of photography - an analytical approach in Surat Al-Anfal*

**Khaled Kamal Muhammad Al-Taher**
**Literature and Criticism - Faculty of Arabic Language - Al-Azhar University – Cairo – Egypt.**
**E-mail: kaltaher@azharegypt.edu.eg**

***Abstract***:

**This paper presents an analytical literary study in Surat Al-Anfal of six Qur'anic discourses to the believers in general, and those who witnessed the Great Battle of Badr in particular, as this study aims to demonstrate the nature of these speeches in terms of intensity and softness, cruelty and compassion, in light of the general context of the surah represented by the reasons for its revelation, And the context for each discourse between its precedents and suffixes from the verses of the Holy Surah, with the link between the aims of the discourse and the characteristics of the artistic / Quranic image. The study relied on the technical analytical method in studying the elements of the Qur'anic image from vocabulary, structures, methods, and partial images, while it was satisfied with analyzing the aspects of Qur'anic imaging with the phonemic values inherent in the Qur'anic comma and the phonemic structure of the discourse's vocabulary, in order to answer the question: What is the wisdom of the contrast between Expected and reality of the style of speech in Surat Al-Anfal؟**

***Keywords***: **Surat Al-Anfal - Discourse - Context - Objectives - Quranic Image - Artistic Image - Phonological Values - Battle of Badr.**

## المقدمـــة

الحمد لله الذي علَّم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام علـــي النبي الأكرم، محمد بن عبد الله، خير من نطق بالبيان، وأفصح بجوامع الكلم عن أبلغ لسان.. وبعد.

فإن القرآن الكريم خطاب إلهي معجز، ورسالة ربانية إبلاغية، ذات مقاصد تشريعية وأخلاقية، وتربوية، وفكرية لا تصلح بدونها الإنسانية، ولا تستقيم بعيدا عنها الحياة، وهو خطاب يناجي القلوب، ويحاور العقول، ويـــدعو إلـــى التأمـــل والتدبر؛ ليرسخ مضامين خالدة تفصح عن منهج الله في تنظيم كونه وضبط حركةَ الحياة لخليفته في أرضه.

ومما يدعو إلى التأمل والدراسة في هذا الخطاب القرآني المقدس عرضـــه لأحداث السيرة النبوية، التي يُعد القرآن الكريم المصدر الأول والأوثق لدراستها؛ فهو يتناولها بطرائق شتى، وزوايا جديدة، وترتيب فريد لأحـــداثها، كمـــا اتســـم أسلوب سردها، وتصوير وقائعها، ودقة التعبير عن سياقها، وبث مقاصدها بمـــا تحار دونه الألباب، وتعجز عن إدراكه الأفهام.

ومن نماذج ذلك سورة الأنفال، وهي سورة مدنية نزلت عقب غـــزوة بـــدر الكبرى؛ تفصِّل مراحلها، وتبعث إلى الأمة عظاتها وعبرها، وكان من المتوقع في ظل ما وهب الله –تعالى– المسلمين من النصر المؤزر بعد جهاد عظيم، ومعانـــاة طويلة أن تسوق السورة إليهم آيات التهاني، والبشارات، وتُثمِّن مواقفهم، وتفاخر بثباتهم، في أسلوب لين، ومعان رقيقة، ومواساة هادئة. لكـــن المفاجـــأة التـــي ناقضت التوقعات، أن خطاب الله تعالى للمؤمنين في هذه السورة اتسم بالقوة إلى درجة العنف، وبالشدة إلى درجة القسوة، وبالعتاب إلى درجة التأنيب، وباللوم إلى درجة العقاب، لم يسلم من هذا النمط الخطابي بَدْرِيٌّ، بل طال في مواقـــف منـــه

الرسول الكريم ﷺ، ما يدعو إلى التفكير في أن ثمة سياقات منسية، أو مقاصد خفية وراء هذا الأسلوب.

**أهمية البحث** :

هذه المغايرة في أسلوب الخطاب بين المتوقع بمقاييس البشر القاصرة، والواقع بتدابير القدر القاهرة أكسبني شعورًا بأهمية دراسة خطاب الله تعالى للبدريين خاصة، وللمؤمنين عامة في هذه السورة، وتحليله تحليلا أدبيًا يقف على خصائص الصورة القرآنية/ الفنية في إطار السياق والمقاصد العامة للسورة، والخاصة بكل خطاب على حدة، لاسيما أن هذه الدراسة –حسب مطالعاتي– لم يسبق لأحد الباحثين تناولها من هذه الزاوية، واخترت لها عنوان: (خطاب المؤمنين في سورة الأنفال بين الشدة واللين (السياق، والمقاصد، والخصائص الفنية) مقاربة تحليلية، مستصحبًا آليات فنية متنوعة؛ لتحقيق عدة أهداف منها:

– إثبات تلك الطبيعة المغايرة لخطاب المؤمنين في سورة الأنفال من حيث الشدة والقسوة.

– محاولة إدراك الأبعاد الفنية في ذلك الخطاب القرآني، والتعرف على أثر السياق والمقاصد في توجيه خصائص الصورة القرآنية.

– التأكيد على أن قراءة السيرة النبوية، والأحداث التاريخية من خلال النص القرآني يفتح آفاقًا جديدة، ويكسب الأحداث دلالات فريدة، تزيد الأحداث كشفًا، والعظات والعبر منه وضوحًا.

**مادة البحث** :

تعددت أوجه خطاب الله تعالى بصيغة المخاطب للنبي ﷺ ولأصحابه في سورة الأنفال كما في الآيات: (١، ٧–١٢، ٣٩، ٤٠، ٦٠، ٦٧، ٦٨)، غير أن هناك ستة خطابات قرآنية أخرى للمؤمنين عامة وللبدريين خاصة ذات طابع

مميز، ورابط وثيق، جمع بينها بدايتها بنداءات صارمة: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)، كما جمع بينها السياق العام للسورة، بيد أن كل خطاب/ نداء منها كوَّن مشهدًا قرآنيًا مستقلًا يشير إلى مقصد خاص يمثل جانبًا من المقاصد العامة للسورة؛ لذلك اخترت هذه الخطابات الست مادة للبحث؛ لكونها نماذج دالة في مضمونها وخصائصها التصويرية على بقية الخطابات الأخرى المشار إليها في الآيات السابقة، وأملاً في أن يكون هذا المنهج ضابطًا ينأى بالبحث عن الاتساع والتكرار.

وقد تمثلت تلك الخطابات الست في آيات سورة الأنفال على النحو الآتي:

الخطاب الأول: الآيتان (١٥، ١٦)، الخطاب الثاني: الآيات (٢٠-٢٣)، الخطاب الثالث: الآيات (٢٤- ٢٦)، الخطاب الرابع: الآيتان (٢٧، ٢٨)، الخطاب الخامس: الآية (٢٩)، الخطاب السادس: الآيات (٤٥-٤٧).

**منهج البحث** :

وقد اعتمدت في دراسة هذه الخطابات المنهج التحليلي مستعينًا بالآليات الفنية المعهودة في تحليل عناصر الصورة القرآنية، وببعض آليات النظرية التداولية التي لا تبتعد -في قناعتي- عن أصول التحليل الفني القديمة إلا في بعض المصطلحات والتفصيلات الجزئية، وذلك للكشف عن دلائل شدة الأسلوب أو لينه.

وقد آثرت دراسة كل خطاب على حدة دراسة كلية، تعكس لوحتُهُ الفنية طبيعةَ الأسلوب الذي خوطب به المؤمنون من خلال التقديم لكل خطاب بسياقه ومقصده الخاصَّين به، ثم القيام بتحليل عناصر الصورة الفنية/ القرآنية من المفردات، والتراكيب، والأساليب، وصور جزئية (خيالية أو حقيقية) مع الربط بين كل من السياق، والمقصد، والخصائص الفنية للصورة القرآنية في كل مشهد.

علمًا بأن تحليل الأثر الفني لبعض المفردات، أو التراكيب كان يستدعي عرض دلالتها المعجمية، ومناقشة بنائها النحوي أو الصرفي، أو الصوتي، أو تركيبها البلاغي، ولا أحسب ذلك يُخرج التحليل عن ميدان الأدب إلى ميدان اللغة أو البلاغة، ذلك أن الجانب الوجداني للصورة القرآنية/ الفنية يكون أعظم تأثير في المتلقي بقدر إنعامه في فهم مكونات الصورة بوجهيها الحقيقي والمجازي.

أما عن القيم الفنية في الصورة القرآنية فقد اكتفيت منها بتحليل القيم الصوتية متمثلة في الفاصلة القرآنية، والبناء الصوتي لمفردات كل خطاب، وقد جعلت لها مبحثًا مستقلًا. مستأنسًا في كل ما سبق بآراء المفسرين المعنيين بدراسة الخطاب القرآني دراسة أدبية، بلاغية، لغوية.

**بناء البحث** :

وقد اقتضى منهج البحث وخطته أن يخرج في تمهيد، وثمانية مباحث، يسبقها مقدمة، ويعقبها خاتمة:

**التمهيد**: بين يدي السورة: التسمية وأسباب النزول والمقاصد العامة، وفيه تم عرض أسباب نزول السورة بوصفه السياق العام لها، مع الإشارة إلى مقاصدها العامة.

**المبحث الأول**: مقاربات اصطلاحية. وفيه تعريف بالمصطلحات الرئيسة في البحث وهي: (الخطاب- الخطاب القرآني- المقاصد - السياق- التصوير القرآني).

**المبحث الثاني**: خطاب التحذير من التولي يوم الزحف

**المبحث الثالث**: خطاب الأمر بالطاعة، والنهي عن الإعراض

**المبحث الرابع**: خطاب الدعوة إلى اتقاء الفتن

**المبحث الخامس**: خطاب النهي عن الخيانة

**المبحث السادس**: خطاب أجر المتقين .

**المبحث السابع**: خطاب الثبات والإخلاص ووحدة الصف

**المبحث الثامن**: الفاصلة القرآنية والصورة الصوتية .

**الخاتمة**.

**قائمة المصادر والمراجع** .

وبعد، فهذا جهد المُقِلِّ، آمل أن يشهد بإخلاص النية، ومحاولة الاجتهاد، تحدوني فيه كلمات سهل بن عبد الله: "لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه؛ لأنه كلام الله، وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية، فكذلك، لا نهاية لفهم كلامه، وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه"(١)، فإن حظي بالتوفيق، فهو من الله، وله الحمد والمنة، وإن شابه التقصير فمن نفسي، سائلا الله –عز وجل– أن يفتح عليَّ من فيوض العلم، وأن يغفر لي الزلات، وأن يقيل العثرات، إنه بعباده لطيف خبير.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

(١) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، ٩/١.

# التمهيد

## بين يدي السورة: التسمية وأسباب النزول والمقاصد العامة

"سورة الأنفال مدنية بدرية في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء. وقال ابن عباس: هي مدنية إلا سبع آيات، من قوله تعالى:" وإذ يمكر بك الذين كفروا " إلى آخر السبع آيات"(١)، سميت بما ورد في أول آية منها (يسألونك عن الأنفال)، و"النَّفَل، بالتحريك: الغنيمةُ والهبةُ.. والجمع أَنْفال ونِفال.. سُمِّيت الغنائمُ أَنْفالاً؛ لأَن المسلمين فُضِّلوا بها على سائر الأُمَمِ الذين لم تحلَّ لهم الغَنائم."(٢)

أما عن أسباب النزول التي تعد سياقًا عامًا للسورة، ففي السابع عشر من رمضان من العام الثاني للهجرة حقق المسلمون بقيادة رسول الله ﷺ انتصارًا عظيمًا مفاجئًا على قريش وحلفائها من العرب في غزوة (بدر الكبرى)، فكانت فاتحة الغزوات المجيدة، وأول نصر للإسلام والمسلمين بعد قرابة خمس عشرة سنة من المعاناة، سام المشركون المسلمين فيها صنوف الإذلال، والتنكيل البدني والنفسي، لم يكن آخرها اضطرارهم إلى الهجرة من بلدهم مكة إلى المدينة المنورة مخلِّفين أهليهم، وأبناءهم، وأموالهم. فكان أثر هذه الغزوة عظيمًا في التاريخ الإسلامي حتى سمَّاها القرآن الكريم (يوم الفرقان)، لأنها كان إيذانًا ببداية عهد جديد، شفى الله بها قلوب المؤمنين وأذهب غيظ قلوبهم، بعدما أضحوا مُهابي الجانب في المدينة وما جاورها من قبائل العرب، فتوطدت دولتهم، وشُرعت لدعوتهم مقوماتٌ جهادية، واقتصادية فَتحت لهم آفاق الحياة الكريمة في ظل دولة مكينة الأركان.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي. محمد بن أحمد القرطبي، ٣٦٠/٧.

(٢) لسان العرب، جمال الدين ابن منظور، ٦٧١/١١.

نزلت سورة الأنفال عقب غزوة بدر الكبرى باتفاق، حتى أطلق عليها ابن عباس (سورة بدر)[1]، تناولت أحداث الغزوة بإسهاب منذ انعقدت النية، وصدح نداء النبي ﷺ للخروج طلبًا لعير قريش، حتى تعليق القرآن على ما ذهب إليه المسلمون في أسرى بدر، وبين حديث السورة عن مقدمات الغزوة وخواتيمها ساقت دروسًا جهادية، وتشريعية، وتربوية، ومجتمعية عدة، دارت جميعها حول مقاصد واضحة، سيأتي ذكرها.

وكان من المتوقع في ظل ما وهب الله تعالى المسلمين من النصر المؤزر في بدر بعد جهاد، ومعاناة أن تسوق السورة إليهم آيات التهاني، والبشارات، وتُدخل عليهم السرور والحبور، وتُثمِّن مواقفهم، وتفاخر بثباتهم، في أسلوب لين، ومعان رقيقة، ومواساة هادئة. لكن المفاجأة التي ناقضت التوقعات، أن خطاب الله تعالى للمؤمنين في هذه السورة اتسم بالقوة إلى درجة العنف، وبالشدة إلى درجة القسوة، وبالعتاب إلى درجة التأنيب، وباللوم إلى درجة العقاب، لم يسلم من هذا النمط الخطابي بَدْرِيٌّ، بل طال في مواقف منه الرسول الكريم ﷺ.

وتعجب أشد العجب عندما يفاجئك هذا الخطاب غير المتوقع في الآية الأولى من السورة، بل في الجملة الأولى منها، "يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ؟!.."، ما يؤكد بعد تأمل أن اسم السورة (الأنفال) كان أولَّ المفاجآت. فما قصة هذه الأنفال؟ وما أهمية موقفها في أحداث الغزوة؟ حتى يختارها الحق سبحانه مشهدًا افتتاحيًا لسورة خلدت ذكرها إلى يوم الدين، لا سيما أن الأنفال عادة ما تختزلها المشاهد الختامية من الغزوات والحروب.

(١) صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري ٢٣٢٢/٤، تفسير البغوي، الحسين بن مسعود البغوي، ٣١٢/٢.

أورد الواحدي في أسباب نزول السورة أحاديث مختلفة، لكنها تتفق في النتيجة والمغزى، الذي يكشف جانبًا من سر التسمية، وعظمة المشهد الذي بدأت به السورة الكريمة. من ذلك ما روي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رضي الله عنهما– قال: "لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ وَقَالَ رسول اللَّه ﷺ: مَنْ فَعَلَ كَذَا وكَذَا فَلَهُ كَذَا وكَذَا، فَذَهَبَ شُبَّانُ الرِّجَالِ وَجَلَسَ الشُّيُوخُ تَحْتَ الرَّايَاتِ، فَلَمَّا كَانَتِ الغنيمة جاء الشباب يَطْلُبُونَ نَفَلَهُمْ، فَقَالَ الشُّيُوخُ: لَا تَسْتَأْثِرُوا عَلَيْنَا فَإِنَّا كُنَّا تَحْتَ الرَّايات، ولو انهزمتم لَكُنَّا لَكُمْ رِدْءًا فَأَنْزَلَ اللَّه تعالى: (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ) فَقَسَمَهَا بَيْنَهُمَا بِالسَّوِيَّةِ"(١)

ومن ذلك ما رُوي عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: "لَمَّا هُزِمَ الْعَدُوُّ يَوْمَ بَدْرٍ، وَاتَّبَعَتْهُمْ طَائِفَةٌ يَقْتُلُونَهُمْ، وَأَحْدَقَتْ طَائِفَةٌ بِرَسُولِ، وَاسْتَوْلَتْ طَائِفَةٌ عَلَى الْعَسْكَرِ وَالنَّهْبِ. فَلَمَّا نَفَى اللَّهُ الْعَدُوَّ وَرَجَعَ الَّذِينَ طَلَبُوهُمْ، قَالُوا: لَنَا النَّفَلُ نَحْنُ طَلَبْنَا الْعَدُوَّ وَبِنَا نَفَاهُمُ اللَّهُ وَهَزَمَهُمْ، وَقَالَ الَّذِينَ أَحْدَقُوا برسول اللَّه ﷺ: واللَّه مَا أَنْتُمْ بِأَحَقَّ بِهِ مِنَّا، نَحْنُ أَحْدَقْنَا برسول اللَّه ﷺ، لَا يَنَالُ الْعَدُوُّ مِنْهُ غِرَّةً، فَهُوَ لَنَا، وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَوْلَوْا عَلَى الْعَسْكَرِ وَالنَّهْبِ: وَاللَّهِ مَا أنتم بأحقَّ به مِنَّا، نَحْنُ أَخَذْنَاهُ وَاسْتَوْلَيْنَا عَلَيْهِ فَهُوَ لَنَا. فَأَنْزَلَ اللَّه تعالى: (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ)؛ فَقَسَمَهُ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السلام بِالسَّوِيَّةِ"(٢).

هذه الروايات وغيرها تدل على أن خلافًا فرديًا، وجماعيًا وقع بين المسلمين عقب غزوة بدر حول أنفال المعركة، ولا يزال غبارها يغطي وجوههم ويغشى ثيابهم، وقد بلغ هذا الخلاف حد التنازع بينهم؛ إذ لم تكن شُرعت بعدُ أحكام

(١) أخرجه أبو داود في سننه: (٢٧٣٧، ٢٧٣٨، ٢٧٣٩)، والبيهقي في السنن الكبير: (٢٩١/٦)

(٢) أسباب نزول القرآن، علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، ص ٢٣٤.

قسمتها، فاحتكموا إلى رسول الله ﷺ، فكان الرد عليهم، والحكم بينهم من رب العالمين في مطلع السورة.

وقد يُلتمس العذر لبعض المسلمين ولاسيما المهاجرون في هذا الموقف، ليس لأنهم يتصارعون على لعاعات الدنيا، بل لأنهم يتسابقون إلى امتلاك ما يجبرون به حاجتهم، ويسدون فاقتهم، ويغنون به أنفسهم بما عاد إليهم من أموالهم المغتصبة. لكن الحق -سبحانه وتعالى- بيَّن أن ما وقع بين المسلمين في أمر الغنائم أشد خطرًا على دينهم ودولتهم من عدوهم، وأكد أن تقويم مسلك المسلمين في هذا الشأن، وتربيتهم أهم من الفرحة بالنصر، والحبور بهزيمة العدو.

وكان خطاب الله تعالى للمؤمنين عامة، وللبدريين خاصة في مطلع السورة دليلًا ساطعًا على عظم ما وقع المسلمون فيه من الخطأ في شأن الأنفال: " يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"، إذ "لَمَّا حكم بأنها ملك لله ورسوله أو بأن أمر قسمتها موكول لله، فقد وقع ذلك على كراهة كثير منهم ممن كانوا يحسبون أنهم أحق بتلك الأنفال ممن أعطيها، تبعا لعوائدهم السالفة في الجاهلية فذكَّرهم الله بأن قد وجب الرضى بما يقسمه الرسول منها، وهذا كله من المقول.

وقُدِّم الأمر بالتقوى، لأنها جامع الطاعات، وعطف الأمر بإصلاح ذات البين، لأنهم اختصموا واشتجروا في شأنها كما قال عبادة بن الصامت: «اخْتَلَفْنَا فِي النَّفَلِ وَسَاءَتْ فِيهِ أَخْلَاقُنَا» فأمرهم الله بالتصافح، وختم بالأمر بالطاعة.. والإصلاح: جعل الشيء صالحا، وهو مؤذن بأنه كان غير صالح، فالأمر بالإصلاح دل على فساد ذات بينهم، وهو فساد التنازع والتظالم"[1]، كل ذلك يدعو إلى

(١) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ٩/٢٥٣.

**التأمل: "هذا هو التعليق على النصر بعد خمس عشرة سنة من الآلام!! علام يدل ذلك؟ على أن سائق النصر لعباده يرفض أي شبهة من غرور أو خيلاء، إن الله هو الذى أذل الكفر وأهله، هو يؤدب المسلمين المنتصرين بأدبه حتى لا تسكرهم خمرة النصر، فيسيروا بين الناس مستكبرين"(١).**

**من هذا المنطلق يحاول هذا البحث رصد المقاصد من وراء خطاب الله تعالى للمؤمنين في السورة؛ وتحليل هذا الخطاب للوقوف على طبيعته من حيث الشدة واللين، مشيرا إلى أهم خصائص التصوير القرآني الدال على تلك الطبيعة.**

**(١) نحو تفسير موضوعي. محمد الغزالي، ص ١٢٧.**

# المبحث الأول

# مقاربات اصطلاحية

تمثل مصطلحات هذا البحث المدخل الرئيس للوقوف على طبيعة الفرضية التي يعالجها، ورؤية الباحث في دراستها، والمنهج المتبع في تحليل المادة العلمية؛ من ثم كان التعريف الموجز بهذه المصطلحات ضرورة عُني بها هذا المبحث الافتتاحي.

## ١- الخطاب.

ليس من هدف هذا المبحث الإغراق في عرض الآراء حول تعريف "الخطاب" مرسلًا، أو مضافًا إلى القرآن الكريم؛ أو التأصيل التاريخي للمصطلح، بل تقديم تعريف موجز له ودون اجترار النقول حول أسسه الفلسفية، ومقدماته النظرية التي حظيت بدراسات متخصصة، ومراجع مستقلة[١].

(الخِطَاب) -بوجه عام- هو أحد مصدري الفعل: خَاطَبَ يَخْاطِبُ، ويرجع أصله إلى "مراجعة الكلام"[٢]، وهو تعريف عام يصلح بيانًا لمصطلحات أُخَر. مثل: "المحاورة" و"المناقرة"، و"المناقلة"، و"المجاوبة". كما أُطلِق على "الكلام"[٣] عامة، ثم أُطلق على "الكَلَام بَيْنَ مُتَكَلِّمٍ وَسَامِعٍ"[٤]، وفي مرحلة لاحقة أضيف إلى حَدِّه قيد

(١) ينظر على سبيل المثال: استراتيجيات الخطاب. عبد الهادي بن ظافر الشهري، والخطاب القرآني والعلاقة بين النص والسياق. خلود العموش. والخطاب القرآن: دراسة في البعد التداولي. مؤيد عبيد.

(٢) كتاب العين: ٢٢٢/٤، المحكم والمحيط الأعظم: ١٢٢/٥.

(٣) لسان العرب ٣٦١/١.

(٤) المصباح المنير ١٧٣/١.

الإفهام فصار "تَوْجِيه الكَلَام نَحْو الغَيْر للإفهام"[١]، وعرَّفته بعض المعاجم الحديثة بأنه "كلام يوجّه إلى الجماهير في مناسبة من المناسبات"[٢].

وعرَّفَ الآمدي (الخطاب) بأنه: "اللَّفْظ المتواضع عَلَيْهِ المَقْصُود بِهِ إفهام من هُوَ متهيئ لفهمه"[٣]، فتحول الأصل اللغوي للخطاب من (توجيه الكلام) نحو الغير، إلى (الكلام الموجّه) نحو الغير، بقصد (الإفهام). غير أن بعض المتأخرين لم ير تهيؤ المخاطَب قيدًا في تعريف الخطاب، فيطلقونه على: "ما يقصد به الإفهام عامة، سواءً أكان المقصود من إفهامه متهيِّئًا لذلك أم غير متهيِّئ". [٤]

ثم كان أبو البقاء الكفوي أكثر تحديدًا لمفهوم الخطاب في كتابه (الكليات) فعرَّفَه بأنه: "الكَلَام يُطلق على العبارَة الدَّالَّة بِالوَضْعِ وعَلَى مدلولها القَائِم بِالنَّفسِ"[٥]، فأضاف بذلك إلى تعريف الخطاب عنصرًا جديدًا يمثل الجانب النفسي، "فالخطاب إِمَّا الكَلَام اللَّفْظِيّ أَو الكَلَام النَّفْسِيّ الموجه نَحْو الغَيْر للإفهام"[٦]، وهي إضافة جديدة توحي بحضور عنصر السياق في تحليل الخطاب.

وكون (السياق، وما يكتنفه من مقاصد) عنصرًا من عناصر الخطاب يمثِّل فارقًا مفاهيميًا بينه وبين النص. فالنص هو: "مجمل القوالب الشكلية: النحوية، والصرفية والصوتية، بغض النظر عما يكتنفه من ظروف أو يتضمنه من مقاصد. في حين يحيل الخطاب على عناصر السياق الخارجية في إنتاجه وتشكيله اللغوي،

---

(١) تاج العروس ١/٧٠.

(٢) معجم اللغة العربية المعاصر ١/٦٦٠.

(٣) الإحكام في أصول الأحكام. ١/٩٥.، كما ينظر: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ١/٧٤٩.

(٤) الخطاب والنّص" المفهوم – العلاقة – السلطة"، عبد الواسع الحميري، ص ٢.

(٥) الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية). أيوب بن موسى الكفوي، ص ٤١٩.

(٦) المرجع السابق، ص ٤١٩.

وكذلك في تأويله، مما يفترض معرفة شروط إنتاجه وظروفه، كما أن هناك فرقًا في العلامات المستعملة؛ فقد ينتج الخطاب بعلامات غير لغوية، كما هو الحال في التمثيل الصامت والرسم الكاريكاتوري، أو الخطاب الإعلاني التجاري"[١]

وخلاصة تلك التعاريف تكمن في أن "الخطاب كلمة تستخدم للدلالة على كلّ كلام متّصل اتّصالًا يمكِّنه من أن ينقل رسالة كلاميّة من المتكلّم أو الكاتب"[٢]. ولكون الخطاب حدثًا كلاميًّا فإنه يتألّف من عدّة عناصر هي: المرسِل، والمستقبل/ الجمهور، والرسالة/ الموضوع، والهدف/ المقصد، "ويؤثِّر هذا الهدف/ المقصد تأثيرًا جليًّا في استراتيجيّة المُرسِل؛ فيملي عليه اختيارات معيّنة من بين البدائل التي يتيحها له النظام اللّغوي، وقد يؤثّر في صورة الحديث وطريقة بنائه، وهو يفسّر الكثير من المتغيّرات الأسلوبيّة التي ترافق عمليّة التعبير اللّغوي". [٣]

## ٢- الخطاب القرآني:

أما (الخطاب القرآني) فهو "خطاب تنتظمه وحدة بنيوية خاصة؛ فهو نظام فكري، ونظام لغوي، يمتاز بـ(الاتساق/الترابط الشكلي)، و(الانسجام/ الترابط المعنوي). فلا يدانيه أي خطاب آخر في نظم دوالّه، ودقة مدلولاته، وتأليف وتناسق عباراته. إنه خطاب يخاطب العقول، ويناجي القلوب، ويحمل مضامين تفصح عن مراد الله في توجيه حياة الناس" .[٤]

(١) استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية. عبد الهادي ظافر الشهري، ص ٣٩.

(٢) الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق. محمد عبد المجيد عبد الواحد، ص ٧.

(٣) المرجع السابق. ص ٨.

(٤) جماليات الخطاب في النص القرآني: لطفي فكري الجودي، ص ٩٥.

ذلك أن (الخطاب القرآني) خطاب إلهي، مُعجزٌ، " كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ" هود: ١، ورسالة ربانية، إبلاغية تهدف إلى " إيصال أمر فيه كفاية وجودة، مع بذل الجهد في إيصاله وإنفاذه إلى المراد إيصاله إليه"(١)، "يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" المائدة:٦٧.

وهو خطاب عالمي، خاتَم، محفوظ من التبديل، والتحريف " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" الحجر: ٩، أنزله الله على نبيه محمد ﷺ "لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا " الفرقان: ١، اقتضت عالميته أن يكون خطابًا للإنسانية كلها، متدفقًا عبر الأزمنة والأمكنة، فهو "كتاب الخلود، ليس كتاب عصر معين، أو كتاب جيل أو أجيال، ثم ينتهي أمده"(٢).

ومن خصوصيته أن "نزول القرآن بلغة ينطقها البشر لا يخرجه عن كونه كلام الله، ولا ينزع عنه الصفة الإلهية، والقداسة الربانية، وإلا لم يكن هناك فرق بين الوحي الإلهي، والتفكير البشري"(٣).

وهو خطاب ذو مقاصد تشريعية وأخلاقية، وفكرية عامة(٤)، لا تصلح الإنسانية بدونها، تُعرف في إطار المقاصد العامة للشريعة، التي تمثل "الغاية والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها"(٥).

---

(١) إبلاغية الخطاب القرآني من منظور لسانيات النص –دراسة في سورة البقرة. عبد الكريم حاقة، ص ٦٥.

(٢) كيف نتعامل مع القرآن العظيم: يوسف القرضاوي، ص ٦٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٢.

(٤) المرجع السابق، ص ٧٣.

(٥) نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: أحمد الريسوني، ص ١٨.

وإلى جانب ما للخطاب القرآني من مقاصد عامة، فإنَّ للأحداث ذات الصبغة التاريخية مقاصد متنوعة، وأغراضًا شتى، تؤثر بقوة في تكوين عناصر الخطاب، كبناء مفرداته، وتأليف تراكيبه، وفي أسلوب عرضه، كما تؤثر في القيم التصويرية الناتجة عن تفاعل تلك العناصر.

### ٣- المقاصد

المقاصد: جمعُ مَقْصِد، ولمادة (ق ص د) في اللغة معانٍ عدة، منها: "استقامَةُ الطَّرِيق، والاعْتِمَادُ، والأَمُّ، والإِتْيَانُ، والكَسْرُ، واكْتِنَازُ الشَّيْءِ: أَيْ امْتِلاؤُهُ، ومن المجَاز: القَصْدُ فِي الشيْءِ وَهُوَ مَا بَين الإِسرافِ والتَّقْتِير".(١)

وأما (المقصد) اصطلاحًا فلم يُعن قدامى الأصوليين والفقهاء بتعريفه بقدر عنايتهم به بحثًا واستنباطًا، وتطبيقًا، ولم يكن شيخ المقاصد (الشاطبي) بِدْعًا منهم في ذلك؛ ولعله "اعتبر ذلك الأمر واضحًا مما يغني عن تعريفه .أو كونه كتب كتاب (الموافقات) للعلماء، بل للراسخين في علوم الشريعة"(٢)

غير أن المتأخرين من الأصوليين عُنوا بتعريف المقاصد عناية كبيرة؛ لأنها "معتبرة في التصرفات والعبارات، كما هي معتبرة في التقربات والعبادات"(٣)، كما أنها علم شرعي يُستدل به على ما يوجب درء المفسدة وجلب المصلحة في سياق مآلات الأفعال، وما يترتب من المعاملات على أساس النية والإرادة، فعرَّف الطاهر بن عاشور المقاصد الخاصة للشريعة بأنها "الكيفيات المقصودة للشارع لتحقيق مقاصد الناس النافعة، أو لحفظ مصالحهم العامة في تصرفاتهم الخاصة كي لا

(١) ينظر: مقاييس اللغة، ولسان العرب، وتاج العروس مادة (ق ص د).

(٢) نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، ص ١٧.

(٣) نظرية المقاصد بين الأصوليين واللسانيات التداولية، فطومة لحمادي، ص ١٨٦.

يعود سعيهم في مصالحهم الخاصة بإبطال ما أسس لهم من تحصيل مصالحهم العامة إبطالا عن غفلة، أو استزلال هوى وباطل شهوة..."[١].

وأوجز الريسوني تعريف مقاصد الشريعة بأنها "الغايات التي وُضعت الشريعة لأجل تحقيقها، لمصلحة العباد"[٢]، كما أوضح طه عبد الرحمن أن المقاصد نظرية أصولية "تبحث في المضامين القيمية للخطاب الشرعي"[٣]

وليس معنى انصراف تلك التعاريف السابقة للمقصد إلى وجهته الشرعية مجافاتها للواقعين اللغوي، والأدبي؛ فالقصد يُعد "بؤرة العملية التواصلية وعاملًا رئيسًا في استعمال اللغة وتأويلها، وقد أدرك (جون سيرل John Searle) ذلك انطلاقًا من القصدية العقلية، حيث استطاع تفسير قصدية الأفعال الكلامية، أو قصدية المعنى، وأكد أن قصدية اللغة هي قدرة أفعال الكلام على تمثل الأشياء في العالم عن طريق حالات عقلية"[٤].

ومن دلائل ارتباط المقاصد بالجانبين اللغوي والأدبي من الخطاب عامة، والقرآني خاصة أن الموروثين الأصولي، واللغوي كادا يتفقان على أن المقاصد من العوامل ذات الأثر البالغ في توجيه المُرسِل إلى اختيار طبيعة خطابه وطرائق التعبير عنه، وفي توجيه اللغة، وتأويلها من جهة المتلقي؛ ذلك أن "لكل خطاب شكله اللغوي الخاص به، ولا شك أنّ هناك علاقة بين شكله اللغوي ومعناه؛ لذا،

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، ص ١٥٤.
(٢) نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، ص ١٩.
(٣) تجديد المنهج في تقويم التراث، طه عبد الرحمن، ص ٩٨، ٩٩.
(٤) نظرية المقاصد بين الأصوليين واللسانيات التداولية. ص ٢٧٥.

يجب الرّبط بين قصد المرسِل، الذي يريد التعبير عنه في خطابه وشكل اللّغة الدّالة عليه، وذلك من خلال النظر إلى سياق التلفظ بالخطاب"[١]

ما يعني أن دور المقاصد بوجه عام يرتكز على "بلورة المعنى كما هو عند المرسِل، إذ يستلزم منه مراعاة كيفية التعبير عن قصده، وانتخاب الاستراتيجية التي تتكفل بنقله مع مراعاة العناصر السياقية الأخرى.

وتكمن وظيفة اللغة هنا في تحقيق التفاعل بين طرفي الخطاب، بما يناسب السياق بمجمله، فتتضح المقاصد بمعرفة عناصره"[٢]

فالعلاقة إذن بين المقاصد والخطاب لا يمكن دراستها أو تحليلها فنيًا إلا عبر تحليل السياق الذي يعكس بجلاء الهدف الاستعمالي من الخطاب.

ومن ثمَّ، "فالعلم بالمقاصد يغدو ضرورة أساسية في تحقيق الخطاب أغراضه، وإيصال المتكلم مراده إلى سامعيه، بل إن المتلقي للخطاب، بما هو العنصر المقصود بخطاب المتكلم، لا يقدر على ممارسة فعل التأويل ما لم يكن عارفًا بمقاصد المتكلم"[٣]، فبدون معرفة المقاصد، لا يمكن أن يستدل بكلام المتكلم على ما يريد، لأن المواضعة وإن كانت ضرورية لجعل الكلام مفيدًا، فهي غير كافية؛ إذ لا بد من اعتبار المتكلم، أي قصده"[٤].

(١) مفهوم المقاصد وعلاقتها بالخطاب. يونسي فضيلة. الخطاب، ص ٢٨٧.

(٢) استراتيجيات الخطاب ص ١٨٠.

(٣) نظرية المقاصد بين الأصوليين واللسانيات التداولية. ص ٢٧٤.

(٤) استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ص ن.

## ٤- السياق

لمادة (س و ق) في اللغة أصل واحد "وَهُوَ حَدْوُ الشَّيْءِ"(١)، وإليه ترجع سائر المعاني: الحقيقية منها والمجازية، الحسية والمعنوية، يُقال: ساق الله إليه خيراً. وساق إليها المهر، والسِّياق: المَهْرُ، والسِّياق: نَزْعُ الرُّوحِ(٢)، كما يأتي السياق في اللغة بمعنى (الإيراد)(٣)، وقد ورد استعمالها في المعاني الحسية في عدة مواضع من القرآن الكريم(٤)، بينا استعملت في الدلالة المعنوية المجازية في موضع واحد في قوله تعالى: "يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ" سورة القلم: ٤٢، ما يشير إلى إمكانية توظيف هذا المصطلح في كلتا الدلالتين، مع تغليب الجانب الحسي.

وفي جانب منه يعرَّف السياق اصطلاحًا بأنه "بناء كامل من فقرات مترابطة، في علاقته بأي جزء من أجزائه، أو تلك الأجزاء التي تسبق أو تتلو مباشرة فقرة أو كلمة معينة"(٥)، وفي خصوصية الخطاب القرآني فإن السياق هو "تتابع المعاني وانتظامها في سلك من الألفاظ القرآنية، لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود دون انقطاع أو انفصال"(٦). ما يعني أن أيًا من المعنى

(١) مقاييس اللغة. أحمد بن فارس، ١١٧/٣.

(٢) لسان العرب، ١٦٧/١٠.

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ٢٧/٤.

(٤) من تلك المواضع: سور: الأنفال: ٦، مريم: ٨٦، الفرقان: ٧، السجدة: ٢٧، ص: ٣٣، الفتح:٢٩، ق: ٢١، القيامة: ٢٩، ٣٠.

(٥) معجم المصطلحات الأدبية. إبراهيم فتحي، ص ٢٠١.

(٦) نظرية السياق القرآني (دراسة تأصيلية دلالية نقدية)، المثنى عبد الفتاح محمود، ص١٤. ص١٤.

ومقصده "لا يتبدى إلا من خلال دراسة سلسلة الكلام وتتابعه، فهو يكشف عن نظام الكلام وتناسقه وترابطه"[١].

ويعد السياق حجر الزاوية في فهم مقاصد الخطاب ومعانيه على الوجه الصحيح؛ لأن "السياق إطار عام تنتظم فيه عناصر النص ووحداته اللغوية، ومقياس تتصل بواسطته الجمل فيما بينها وتترابط، وبيئة لغوية وتداولية ترعى مجموع العناصر المعرفية التي يقدمها النص للقارئ"[٢]

وقد فطن النقاد القدامى إلى قيمة السياق في إدراك مرامي الكلام ومقاصده، فكانت القاعدة الذهبية التي وضعها الأدباء والبلاغيون (لكل مقام مقال)[٣]؛ لذا، أضحت المقاصد وما يتصل بها من مفاهيم قوة ناجزة على مستوى الخطاب، لا يمكن إدراكها إلا بتقصي المعنيين العام والخاص له، ولا يتحقق ذلك دون دراسة السياق دراسة دقيقة وصولًا إلى الهدف الاستعمالي من الخطاب، وإدراكًا لمدى القدرة الكامنة في لغة الخطاب على موافقة تلك المقاصد، والإفاضة على المتلقي بمكنونها.

وتزداد منزلة السياق أهمية وخصوصية في دراسة الخطاب القرآني؛ لما له من صفة (الإبلاغية)، فقد أدرك علماء المسلمين أهمية السياق فيما يتصل بالخطاب القرآني من علوم؛ "لأنهم وجدوا فيه وسيلة منهجية تساعد في بيان المراد بخطاب الشارع"[٤] وقد عرفوا نوعين هامين شاملين للسياق هما: المقالي اللفظي، والمقامي الحالي وعلى هذا رأوا أن السياق "إما أن يراد به نصوص

(١) دلالة السياق في القصص القرآني، محمد عبدالله العبيدي، ص٢٣.
(٢) النص القرآني ومنهج السياق، عبد الرحمن بودراع، ص ٢٦.
(٣) الحيوان، عمرو بن بحر الجاحظ، ١٩/٣.
(٤) السياق: المفهوم – المنهج – النظرية. طه جابر العلواني، ص ١٥.

سابقة ولاحقة لما يراد بيانه، أو سيق الخطاب لأجله.. وأحيانًا يراد بها سبب نزول الآية ومناسبتها[١].

ولا ريب أن فهم العديد من آيات الكريم والوقوف على ملَحٍ من إعجازها البياني متوقف علي إدراك سياقها، فهو جزء من مكونات النص؛ حتى عد أحد الباحثين السياق متمما للنص، والنص متممًا للسياق[٢]، "وعندما نهمل السياق أو لا نلتفت إليه بالقدر الكافي نجد أنفسنا نتردد بين تفسيرات وتأويلات عديدة للقول.. وقد نسيء فهم القول ونفسره بشكل خاطئ لا يعبر عن مقصود المتكلم"[٣]

ومما يرفع قيمة السياق في دراسة الخطاب القرآني، ويوثق الصلة بينهما أن من خصائص القرآن الكريم أنه نزل منجَّمًا؛ "فهذا التنجيم والنزول على مكث لابد أن يستدعي سائر أنواع (السياق) الذي نزل فيه كل نجم من نجوم القرآن المجيد..؛ ليتمكن المجتهد والمفسر، وأهل الاستنباط، والمدركون لأسرار بلاغة القرآن ودلائل إعجازه من الوقوف من النص على ما لا يمكن الوقوف عليه بدون ملاحظة سائر أنواع السياق"[٤]

وفي الدراسات الحديثة أضحى السياق محورًا رئيسًا، ودعامة ركينة في الدرس التداولي في ميداني اللغة والنقد الأدبي، بل صار نظرية مهمة في الدراسات الدلالية والأدبية الحديثة؛ غير أن معناه لم يعد قاصرًا على سوابق الخطاب ولواحقه في الفقرة الواحدة، أو في الموضوع بمجمله، بل اتسع مفهومه ليطلق على كل ما هو خارج اللسان كزمن التلفظ، ومكانه، وطبيعة المتخاطبين،

(١) السياق: المفهوم – المنهج – النظرية. طه جابر العلواني ١٥.
(٢) ينظر: اللغة والمعنى والسياق. جون لاينز، ترجمة عباس صادق الوهاب، ص ٢١٥هـ.
(٣) السياق: المفهوم – المنهج – النظرية. ص ١٥.
(٤) المرجع السابق، ص ١٣.

وجنسهم، بما يفتح مستويات التأويلي التداولي، والتحليل البلاغي والأدبي على بصيرة، وحسن إدراك؛ وهو ما لم يغفل عنه علماؤنا القدامى حين اعتدوا بأسباب النزول في الخطاب القرآني، وقرائن المقام والمقال في الحديث النبوي الشريف.

من ثم بدأ تقسم أنواع السياق فكان منها السياق الزماني، والمكاني، واللغوي، والتاريخي... ولعل من أهم تلك الأنواع "السياق المقاصدي ومعناه النظر إلى الآيات القرآنية من خلال مقاصد القرآن الكريم والرؤية القرآنية العامة للموضوع المعالج"(١) وهو ما يمس موضوع هذا البحث من قريب.

وإلى جانب ما سبق فإن للسياق وظائف جمة تسهم في فهم الخطاب وتحليله، فقد "اعتمده علماؤنا أساسًا لتصحيح الفهم، والإرشاد إلى المراد، والتضييق من شقة الخلاف"(٢)

"دائما ما يكون سياق مجموعة من الكلمات وثيق الترابط بحيث يلقي ضوءًا لا على معاني الكلمات المفردة فحسب، بل على معنى وغاية الفقرة بأكملها. وكثيرا ما يغير المحيط التي توجد فيه العبارة من المعنى الذي كان يبدو واضحًا في العبارة ذاتها، أو يوسعه، أو يعدله"(٣).

ويقول ابن دقيق العيد: "السياق طريق إلى بيان المجملات، وتعيين المحتملات، وتنزيل الكلام على المقصود منه"(٤)، ومما يقوله الشاطبي مشيرا إلى أهمية السياق ووظيفته في الخطاب المقدس: "ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل

(١) النص القرآني ومنهج السياق، ص ٢٦.

(٢) السياق وفهم النص الشرعي: دراسة في الوظيفة والدلالة، مولاي الحسين ألحيان، ص ٥٣٧.

(٣) معجم المصطلحات الأدبية. ص ٢٠٢.

(٤) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تقي الدين ابن دقيق العيد، ٨٢/٢.

في هذا النمط، فهي من المهمات في فهم الكتاب بلا بد، ومعنى معرفة السبب هو معنى معرفة مقتضى الحال،.. والجهل بأسباب التنزيل موقع في الشبه والإشكالات، ومورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال حتى يقع الاختلاف"(١)

وعلى هذا يمكن القول: إن ما سبقت الإشارة إليه في تمهيد البحث من الحديث عن أسباب النزول، يمثل السياق العام الذي أحاط بخطاب الحق سبحانه لأصحاب النبي ﷺ، وأن سوابق هذا الخطاب ولواحقه من الآيات القرآنية تمثل سياقه الخاص، الذي تُقيم مقاصد الخطاب في ضوئه، وهو ما اعتمده الباحث في هذه الدراسة.

٥- **التصوير (القرآني/ الفني)**: هو منهج يُعنى برصد التفاعل بين كل من عناصر الصورة الفنية، ومظاهرها؛ لإدراك مدى الاتساق والانسجام بين المقاصد القرآنية وعناصر الصورة الفنية (القرآنية) وقيمها في إطار السياق.

فالتصوير، من جهة، "هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، وهو القاعدة الأولى فيه للبيان، وهو الطريقة التي يتناول بها جميع الأغراض"(٢)، فضلًا عن دوره في "التعبير عن المعاني المجردة، والحالات النفسية، والمواقف الإنسانية"(٣).

و"نعت الأداة بالمفضلة احتراز من مغبة التعميم الذي قد يفهم منه أن أسلوب القرآن الكريم كله تصوير. غير أن العناصر التي يزجيها لفعل التصوير قد

(١) الموافقات، إبراهيم بن موسى بالشاطبي، ١٤٦/٤.

(٢) التصوير الفني في القرآن الكريم. سيد قطب، ص ٣٦، وينظر: ص ٧٠.

(٣) وظيفة الصورة الفنية في القرآن. عبد السلام أحمد الراغب، ص ٧.

تستغرق أساليب القرآن الكريم في كل أنماطه القولية؛ لأنها لا تخص التصوير وحده"[١].

من جهة أخرى، فإن التصوير في القرآن الكريم يمثل حجر الزاوية في معايشة مقاصد السياق، فليس عنصرًا تعبيريًا طارئًا، وليس مجرد "حلية الأسلوب، ولا فلتة تقع حيثما اتفق، إنما هو مذهب مقرر، وخطة موحدة، وخصيصة شاملة، وطريقة معينة، يُفتنُّ في استخدامها بطرائق شتى، وفي أوضاع مختلفة"[٢]

كما يمثل التصوير الأصول العامة للجمال الفني في القرآن الكريم؛ فإن "لهذا الكتاب العظيم خصائص مشتركة، وطريقة موحدة، في التعبير عن جميع الأغراض... هذه الطريقة الموحدة، والقاعدة الكبيرة، هي (التصوير الفني)"[٣].

ومن أبرز الأسباب التي أفردت التصوير في القرآن بهذه المنزلة أن الصورة "تعرض الحقيقة الواقعة بأسلوب فني مؤثر، دون أن تحيد عن الحقيقة أو تبتعد عنها (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً) النساء: ٨٧" [٤].

من أجل ذلك اخترت التصوير القرآني بأدواته الفنية المختلفة والمتعددة ليكون دليلاً ساطعًا، وحجة دامغة على إظهار الفارق بين ما هو كائن، وما يُتخيل أن يكون في طبيعة الخطاب القرآني للمؤمنين في سورة الأنفال.

---

(١) آليات التصوير في المشهد القرآني. قراءة في استطيقا الصورة الأدبية. د. حبيب مونسي.، ص ٢.

(٢) التصوير الفني في القرآن الكريم ص ٣٧.

(٣) المرجع السابق ص ٣٥.

(٤) وظيفة الصورة الفنية في القرآن. ص ٤٦.

# المبحث الثاني

## خطاب التحذير من التولي يوم الزحف

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١٦)

### • السياق الخاص

اعترض هذا الخطاب القرآني للمؤمنين مشهدًا يبدأ بقوله سبحان: "إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا.." (الأنفال: ١٢) ويُستأنف بقوله: "فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ.." (الأنفال: ١٧)؛ "إظهاراً للاعتناء بشأنه ومبالغةً في حضهم على المحافظة عليه"[1]، حيث يذَكِّر الحق سبحانه المؤمنين في ذلك المشهد بما أيدهم به يوم بدر من ملائكة مردفين، ونصر مؤزر على المشركين، ومبينًا أن عاقبة المشركين مستحقَّة، ثم ينسب ما تحقق من نصر لله وحده.

### • المقصد

ينبئ الخطاب أنه توجيه صارم شديد اللهجة للمؤمنين بالثبات والتحلي بالشجاعة عند لقاء الأعداء، وتحذيرهم الشديد من التولِّي يوم الزحف، ووعيد المخالف منهم بغضب الله في الدنيا، وعذاب جهنم يوم القيامة، وبئس المصير.

ومثار الدهشة هنا أن أحدًا من البدريين –رضي الله عنهم– لم يفعل من ذلك شيئًا، بل ضربوا أمثلة خالدة من التخطيط، والشجاعة، والإقدام، والثبات، ولم

(١) تفسير أبي السعود ١٢/٤.

يكتفوا بهزيمة المشركين، بل طاردوهم حتى ولَّوا مدبرين. فلماذا ورد هذا الخطاب الشديد في ذلك السياق؟

يعلل الألوسي ذلك بأنه "خطاب للمؤمنين بحكم كلي، جار فيما سيقع من الوقائع والحروب، جيء به في تضاعيف القصة إظهارًا للاعتناء به وحثًا على المحافظة عليه"(١)، وكأنه استباق وتحذير لما سيقع يوم أحد، أو "كأنهم أُشعروا بما كان سيكون منهم يوم حُنين حين تولوا مدبرين، وهم زحف من الزحوف اثنى عشر ألفاً"(٢)، ولعله "تدريب للمسلمين على الشجاعة والإقدام والثبات عند اللقاء، وهي خطة محمودة عند العرب لم يزدها الإسلام إلا تقوية"(٣).

إلا أنه تدريب في سياق خاص وافق عُجْبًا وقر في قلوب بعض المنتصرين يُخشى معه الغرور بأنفسهم، كما وافق واقعًا جديدًا على مجتمع الصحابة بعدما حققوا انتصارًا عظيمًا مفاجئًا لأول مرة في تاريخهم، وقد كشف قلةُ علمهم بتشريع الإسلام في تلك الأحداث عن إقبالٍ على لعاعات الدنيا وتسابق إليها. ما استدعى أن يكون التوجيه حادًا، وقويًا، أقيم فيه اللوم والحساب مقام التهاني والبشارات؛ حتى لا يتكرر هذا الخطأ في غزوات لاحقة، فتكون العاقبة أشد وأنكى على الدولة الإسلامية بأسرها؛ "وذلك أن الله أوجب على المسلمين قتال المشركين فإذا أقدم المسلمون على القتال لم يكن نصرهم إلا بصبرهم وتأييد الله إياهم، فلو انكشفوا بالفرار لأعمل المشركون الرماح في ظهورهم فاستأصلوهم، فلذلك أمرهم

(١) روح المعاني، الألوسي ١٦٨/٥.
(٢) الكشاف. الزمخشري ٢٠٦/٢. وينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل. البيضاوي ٥٣/٣.
(٣) التحرير والتنوير ٢٨٦/٩.

الله ورسوله بالصبر والثبات، فيكون ما في هذه الآية هو حكم الصبر عند اللقاء". (١)

- **خصائص الصورة القرآنية/ الفنية.**

تظهر دلائل شدة الأسلوب وقسوته في هذا الخطاب في عناصر الصورة كافة: المفردة، والتركيب، والصور الجزئية، واحترازًا عن التكرار إذا ما تم تحليل كل عنصر على حدة، آثرت أن أعرض المشهد متكامل الصورة، مترابط العناصر من حيث (المفردة بدلالاته المختلفة، والتركيب بأنواعه، والصورة الجزئية) حسب ما يسر الله وهدى إلى فهم خطابه الكريم، حيث تآزرت خصائص هذا الخطاب في مجملها على خلق واقع مستهجن، وتأكيد تفاصيلَ ترقى إلى مقام التُّهم لم يحدث منها شيء قط حال نزول السورة، وهو ما يمثل عبئًا نفسيًا قاسيًا على المخاطبين.

بدأت ملامح الشدة في الأسلوب من خلال الصورة الحقيقية المتمثلة في أسلوب النداء الذي افتُتح به الخطابُ، حيث أوحى ببعدهم عن تعاليم الإسلام، وشتاتهم عن الهدف الأسمى لدعوتهم ونصرة نبيهم، حيث وُظِّف حرف (يا) لنداء البعيد؛ استحضارًا لذهن المخاطبين ووعيهم، واهتمامًا بما سيلقى إليهم، فنزَّل الحاضر منزلة البعيد الذي تشتت انتباهه، وتفرقت به السبل.

ومن الصور الحقيقة التي أسهمت في الشعور بقسوة الخطاب وشدته التعريف بالموصولية وفيه إشعار بأن الموصوفين بجملة الصلة (آمنوا) من شأنهم أن يتلقوا ذلك الخطاب بالإذعان، والقبول، وحسن العمل، ما يوحي لغير العالم بهم أنهم ليسوا كذلك، وفي ذلك من المشقة النفسية ما فيه.

(١) التحرير والتنوير ٢٩٢/٩.

كذلك يُعدُّ أسلوب الشرط (إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا) في هذا الخطاب من مكونات الصورة الحقيقة؛ حيث جاءت (إذا) الشرطية لتأكيد الواقع الذي يحذر منه فعل أسلوب الشرط وجوابه. وزادت صيغة الماضي (لقيتم) تأكيد الحدوث، فضلا عما يوحي به الفعل من تصوير اجتماع طرفي المعركة في ميدانها، فـ (اللقاء) نقيض الافتراق والتباعد، وهو يدل على توافِي شيئين، ويغلب استعماله في مناجزة العدو.

– وإلى جانب التراكيب كان للمفردة في الخطاب القرآني أثر بيِّن في إشعار المتلقي بشدة الأسلوب وقسوته، من ذلك كلمة (زحفًا) ولها في هذا السياق دلالتان كلاهما قوي الإيحاء بشديد الأسلوب وقسوته، فإما أن يكون الزحف مصدرًا وقع حالًا[1] من الفاعل في (لقيتم) أو من المفعول به (الذين كفروا)، أو منهما معًا؛ إلا أن معناها الأول فيه استعارة مكنية سر جمالها التجسيم. فإن "الزَّحْفِ لِلصَّبِيِّ.. وشُبِّه بزَحْفِ الصِّبْيَانِ مَشْيُ الفِئَتَيْن تَلْتَقِيان لِلْقِتَالِ، فَيَمْشِي كُلٌّ فِيهِ مَشْيًا رُوَيْداً إِلَى الفِئَةِ الأُخْرى قَبْلَ التَّدَانِي للضِّراب"[2].

وإما أن يكون الزَّحْف اسمًا أُطلق على "الجماعةُ يَزْحَفُون إِلَى العدُوِّ"[3]، و"الجيش الدهم الذي يُرى لكثرته كأنه يزحف، أي يدب دبيباً"[4]، فإن منبع القسوة هنا يكمن في أن الحق سبحانه نهاهم على الفرار إن كانوا جيشًا كبير العدد، وهو الأقرب سياقيًا[5]، فهو نهي عن الفرار من مواجهة المشركين إذا كانوا كثير العدد

(١) "قِيلَ: انْتَصَبَ زَحْفاً عَلَى الْمَصْدَرِ بِحَالٍ مَحْذُوفَةٍ أَيْ زَاحِفِينَ زَحْفًا" فهو من قبيل التأكيد. ينظر: البحر المحيط ٢٩٢/٥.

(٢) لسان العرب، ١٢٩/٩.

(٣) السابق، ١٢٩/٩.

(٤) الكشاف، ٢٠٦/٢.

(٥) أكد هذا التفسير الزمخشري في الكشاف ٢٠٦/٢.

وكان المسلمون قلة، وعلى هذا فالأولى أنه لا يجوز الفرار إن كان المشركون قليلي العدد، فإذا فهم هذا التوجيه في سياق ثبات المسلمين وبطولاتهم في بدر أشعرك ذلك بمدى القسوة في التوجيه، والشدة في البدريين من أصحاب النبي.

ثم يعود الأسلوب ليسهم في رسم ملامح الصورة الفنية للخطاب بقوله تعالى: (فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ) يُعد هذا النهي فعلًا كلاميًا إنجازيًا غرضه التحذير، والتقبيح والذم من الوقوع في المنهي عنه؛ لارتباطه بالتقاء الجيشين زاحفين، فإن "تقييد النهي بذلك لإيضاح المراد بالملاقاة، ولتفظيع أمر الإدبار لما أنه مناف لتلك الحال، كأنه قيل حيث أقبلتم فلا تدبروا"[(١)].

كما يعبِّر هذا التركيب عن صورة بيانية تزيد الخطاب شدة وتنفيرًا، ففيه كناية عن صفة (الفرار من العدو) "بقرينة ذكره في سياق لقاء العدو"[(٢)]، ويرى أبو حيان "هذا النوع من علم البيان يسمى بالتعريض عرض بسوء حالهم وقبح فعالهم وخساسة منزلتهم"[(٣)]، وإن كنت أتفق معه في الغرض من الصورة إلا أني أكثر ميلاً لكونها كناية؛ ذلك "أن الدلالة في الحقيقة، والمجاز والكناية، دلالة باللفظ، أما الدلالة في التعريض فدلالة عن اللفظ، تنشأ عنه، وليست به، وهذا معنى ما يقال من أن دلالة التعريض دلالة فحوى، وأن دلالة الحقيقة، والمجاز، والكناية دلالة منطوق"[(٤)] وهو ما يتحقق في هذا المقام.

هذا، فضلا عما تحمله كلمة (الأدبار) من دلالة شديدة الوطأة فقد "عدل عن ذكر الظهر إلى الدبر مبالغة في التقبيح والذم إذ تلك الحالة من الصفات القبيحة

(١) روح المعاني ١٦٩/٥.
(٢) التحرير والتنوير ٢٨٩/٩.
(٣) البحر المحيط ٢٩٢/٥.
(٤) التعريض في القرآن الكريم. إبراهيم عبد الله الخولي، ص ٤٢.

المذمومة جدا"[1]؛ فإن "دُبُر كُلِّ شَيْءٍ: عَقِبُه ومُؤخَّرُه؛ وَجَمْعُهُمَا أَدْبارٌ.. والدُّبُرُ والدُّبْرُ: الظهر"[2].

(وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ) يزيد هذا التركيب الغرض من الخطاب بيانًا، والمقصد وضوحًا، وذلك من خلال الإلحاح على عموم الخطاب باستخدام (مَنْ) الشرطية، ثم أفاد التقييد بقوله (يومئذ) أي يوم الزحف تأكيد أن الفرار المنهي عنه ما كان قبل النصر أو القتل. وليس التولي بعد انتهاء المعركة وتحقيق النصر، كما كان في تكرار (الدبر) إنعامًا في تقبيح الصورة وتشديد لهجة الخطاب.

وفي المقابلة بين صيغتَيْ المضارع في (يولهم)، والماضي في جواب الشرط (باء) مسبوقًا بـ (قد)، إيحاء بأن التولِّي فعل متكرر الحدوث من المخاطبين، غير أن الجزاء وهو الأوبة بغضب الله، والوعيد بجهنم مأوى للفاعلين ثابت الوقوع على كل حال وهو مما أوحت به صيغة الماضي (باء). وفي هذا ما لا يخفى من الشدة في الخطاب، والصرامة في الترهيب، والتوجيه.

(إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ) قد يبدو هذا الاستثناء لالتقاط الأنفاس، والتخفيف من حدة الخطاب؛ لكنني استشعر فيه امتدادًا لشدة الخطاب وحدته، فعندما حذَّر شمَلَ الخطاب الجميع، وفي حال الاستثناء في التحذير وضع ضوابط باطنة وظاهرة للمستثنين، كأنه يقول ما أيسر الهلاك، وما أصعب النجاة.

فعموم الآية لا يشمل المتحرِّف لأجل القتال، يقال: "حَرَفَ عَنِ الشَّيْءِ يَحْرِفُ حَرْفاً وانْحَرَفَ وتَحَرَّفَ واحْرَوْرَفَ: عَدَلَ.. وَإِذَا مالَ الإِنسانُ عَنْ شَيْءٍ يُقَالُ

(١) التعريض في القرآن الكريم. إبراهيم عبد الله الخولي ، ص ٤٧.
(٢) لسان العرب ٢٦٨/٤.

تَحَرَّف"[١]، فالتحرُّف: مزايلة المكان المستقر فيه والعدول إلى أحد جوانبه، وهو يستدعي تولية الظهر لذلك المكان بمعنى الفرار منه [٢].

فالمستثنى (المتحرِّف) يجوز أن يكون ذاتًا والتقدير: إلا رجلا متحرفا لقتال، فحذف الموصوف وبقيت الصفة، ويجوز أن يكون حالة أي إلا في حال تحرفه لقتال. [٣]

"واللام للتعليل أي إلا في حال تحرُّفٍ أي مجانبة لأجل القتال، أي لأجل إعماله إن كان المراد بالقتال الاسم، أو لأجل إعادة المقاتلة إن كان المراد بالقتال المصدر، و(تنكير قتال) يرجح الوجه الثاني"[٤]

(أوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ) الاستثناء الثاني لمن تحيَّز إلى فئة، والتحيز طلب الحَيِّز.. انْحازَ القومُ: تركوا مَرْكَزهم ومَعْرَكة قتالهم ومالوا إلى موضع آخر. تَحَوَّز عنه وتَحَيَّزَ إذا تَنَحَّى.. ومُتَحَيِّزاً إلى فئة، نصب مُتَحَيِّزاً ومُتَحَرِّفاً على الحال أَي إِلا أَن يتحرف لأَن يقاتل أَو أَن يَنْحاز أَي ينفرد ليكون مع المُقاتِلة[٥].

وبعيدًا عن تأويلات (فئة) كأن يقصد بها "جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها، وقيل الفئة هنا المدينة والإمام وجماعة المسلمين أينما كانوا"[٦] فإن تنكيرها يدل على العموم والشمول، وقد يدل على التعظيم إما لكثرة عددها، أو لحسن تخطيطها.

---

(١)لسان العرب ٤٣/٩.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٢٨٩/٩.

(٣) المرجع السابق ٢٨٩/٩.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير ٢٩٠/٩.

(٥) لسان العرب ٣٤٠/٥..

(٦) البحر المحيط ٢٩٤/٥.

(فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ) عاد الخطاب متوعدًا الفارين من الزحف، من غير المستثنين، بأنهم بدلا من أن يعودوا بالنصر، سيرجعون في حالتهم تلك متلبسين بغضب من الله، وهي نتيجة صادمة مؤلمة، عزز من أثرها القاسي على النفس تأكيد جواب الشرط بقد والفعل الماضي (فقد باء)، "ومناسبة (باء) هنا أنه يشير إلى أن سبب الغضب عليه هو ذلك البوء الذي باءه. وهذا غضب الله عليه في الدنيا المستحق الذم وغيره مما عسى أن يحرمه عناية الله تعالى في الدنيا"(١).

كما دل تنَكير (غضبٍ) على التهويل والتعظيم، ثم جاء النعت (مِنَ الله) وهي شبه الجملة "مؤكدة لما أفادَه التنوينُ من الفخامة والهولِ بالفخامة الإضافيةِ أي بغضبٍ كائنٍ منه تعالى"(٢)

(وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) الدافع إلى الفرار عادة هو اللجوء إلى مكان ينجيه من القتل، فبدَّل قوله تعالى:(وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ) ما أراد بفراره حين أرهب المخاطب بأن التلبس بغضب الله حال الفرار مضيعة للدنيا، ومعبرٌ إلى جهنم يوم القيامة، ليعقبه الذم صريحًا (وبئس المصير)، ولا ريب في أن "إيقاع البَوْءِ في موقع جوابِ الشرطِ الذي هو التوليةُ مقروناً بذكر المأوى والمصير من الجزالة ما لا مزيدَ عليه"(٣)

وقد "استُدل بهذه الجملة الشرطية على وعيد الفساق من أهل الصلاة لأنها دلت على أن من انهزم إلا في هاتين الحالتين استوجب غضب الله ومأواه جهنم"(٤)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩١/٩.

(٢) تفسير أبي السعود ١٢/٤.

(٣) تفسير أبي السعود ١٢/٤.

(٤) البحر المحيط ٢٩٤/٥.

**ولا يخفى ما للطباق في الآية من أثر في إيضاح المعنى وتأكيده في وعي المخاطبين، وذلك بين (آمنوا) و(كفروا)، وبين (لقيتم) و(تولوا).**

**مما سبق يتبين أن كل مكونات الخطاب، وعناصر التصوير فيه تآزرت على الإيحاء بشدته، وقسوته على البدريين من أصحاب النبي ﷺ تحقيقا للغرض منه وفق سياقه الخاص.**

# المبحث الثالث

## خطاب الأمر بالطاعة، والنهي عن الإعراض

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)

### • السياق الخاص

يمثل هذا الخطاب عودًا على ما بدأت به السورة من أمر البدريين بتقديم طاعة الله ورسوله على اتباع أهوائهم التي أفسدت ذات بينهم "فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" (الأنفال: ١) الفارق بينهما أن هذا الخطاب (الثاني) جاء عقب بيان الحق سبحانه لما يجب أن يتحلى به المؤمنون من خصال قلبية وأعمال تعبدية، وبعد أن ضرب لهم مثالين على أن النصر والتمكين يكمنان في طاعة الله ورسوله، لا في اتباع الهوى- وإن حسنت النوايا- هما: واقعة كراهة الخروج يوم بدر حين نُودي به، وواقعة تفضيلهم الفوز بالعير عن خوض النفير دون الأخذ بأسبابه، وكيف تحقق لهم النصر والغُنْم حين اتبعوا نبيهم وآثروا طاعته.

كما جاء هذا الخطاب بعد أن أوضح للمخاطبين كيف هُزم المشركون لأنهم شاقوا الله ورسوله، وبعد أن أمرهم بأمر شديد على النفس وهو الإقدام والثبات عند لقاء الأعداء زحفًا، كما أظهر لهم عجائب قدرته في هزيمة أعدائهم.

عقب ذلك، أعاد رب العزة سبحانه خطابه لهم: "يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ".

- **المقصد**

ولعل الغرض من هذا الخطاب وفق سياقه هو التحذير من معصية الله ورسوله، والتنفير من التشبه بالعصاة الذين عطلوا ما فضلهم الله به على الدواب، فأمسوا شرًّا منهم. لما في العصيان من فقدان أهلية النصر، وتفكك الجمع، واستحقاق المذلة والهزيمة.

- **خصائص الصورة القرآنية**

اشتمل هذا الخطاب على أسلوب أمر، وأسلوبي نهي، وجُمَلٍ خبرية. ولأهمية مقاصد هذا الخطاب الذي لم يقترف المسلمون يوم بدر شيئًا من محذوراته اتسم أسلوبه بالشدة والقسوة؛ خشية أن يصيب المسلمين ما يكرهون عند لقاء عدوهم، وبناء دولتهم إن تهاونوا في الالتزام بتلك المأمورات. ومن دلائل هذه الشدة في الخطاب ما يأتي.

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ) افتتاح الخطاب بالنداء للبعيد؛ للاهتمام بمضمون الخطاب، وجذب انتباه المخاطبين لما سيلقى إليهم، ثم تعريفهم بالموصولية للتنبيه على أن مَن شأنه الاتصاف بمضمون جملة الصلة حقيق بقبول ما سيُتلى عليه من المأمورات والمنهيات. وتتمثل الشدة في هذا الجانب حين يُنزل الحاضر القريب من البدريين منزلة البعيد، ويذكرهم بصفة الإيمان التي قدَّموا عليها أعظم البراهين قُبيل نزول الآيات يوم بدر، وكأنه وقع منهم ما ينافي شرف الاتصاف بها.

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) بدأ جواب النداء بأسلوب أمر مباشر للمؤمنين بتمام الانقياد لما أمروا به واجتناب ما نُهوا عنه، وهو فعل كلامي يعبر عن مقصد بلاغي يتمثل في التنبيه على أن طاعة الله تعالى في طاعة رسوله ﷺ (مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله).

ولعل الأمر بالطاعة بعد الوصف بالإيمان في هذا السياق تعريض بما يُخشى وقوعه من أفعال لا تعبر عن الطاعة التامة لله ورسوله، أو يكون للهوى دخل فيها. وهو ما يؤكده النهي في قوله:

(وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ) وهو فعل كلامي يحمل مقصدًا بلاغيًا، وطاقة بيانية؛ فالتولي: هو الإعراض والانصراف، واستُعير في هذا الخطاب للمخالفة والعصيان على سبيل الاستعارة التبعية التصريحية، ثم كان "إفراد الضمير المجرور بـ (عن) لأنه راجع إلى الرسول ﷺ، إذ هذا المناسب للتولي بحسب الحقيقة. فإفراد الضمير هنا يشبه ترشيح الاستعارة، وقد علم أن النهي عن التولي عن الرسول نهي عن الإعراض عن أمر الله". [١]، ويرى أبو حيان أن الضمير في (عنه) يعود على الأمر بالجهاد ونحوه، فهو من المجاز[٢] المتمثل في الاستعارة المكنية.

(وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ) أي دعاءه إلى الجهاد، بهذه الجملة أنعم الخطاب في التأديب، واشتد أسلوب التوجيه حين سدَّ أمام المخاطبين طرق التعلل والاعتذار عن الإعراض وعدم الطاعة بأن أثبت لهم القدرة على الاستماع، والفهم، والتصديق؛ فهي "جملة حالية واردة لتأكيد وجوب الانتهاء عن التولي مطلقا لا لتقييد النهي عنه بحال السماع"[٣]. ذلك أن "العصيان مع توفر أسباب الطاعة أشد منه في حين انخرام بعضها.. ولما كانت المخاطرة بالنفس شاقة شديدة على كل أحد، وكان ترك المال بعد القدرة على أخذه شاقًا شديدًا، لا جرم بالغ الله تعالى في التأديب في هذا الباب. [٤]

(١) التحرير والتنوير: ٣٠٣/٩.
(٢) ينظر: البحر المحيط ٢٩٩/٥. تفسير أبي السعود ١٤/٤.
(٣) روح المعاني ١٧٥/٥. تفسير أبي السعود ١٤/٤.
(٤) مفاتيح الغيب ٤٦٩/١٥.

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) يمثل هذا النهي تصعيدًا في شدة الخطاب؛ إذ يقرر النهي السابق، ويحذر من مخالفته، فكان القصد منه تحذير المؤمنين من التشبه بالمنافقين والكافرين الذين "ادّعوا السماع وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ لأنهم ليسوا بمصدّقين فكأنهم غير سامعين"[١] فالسماع في هذا الخطاب كناية عن القبول والإذعان؛ ذلك أن الإنسان لا يمكنه قبول التكليف والالتزام به دون أن يسمعه، كما أن الأسلوب في مجمله تعريض بالمشبه بهم.

وزيادة في تقبيح المشبه به جاءت جملة الحال (وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) لتقرر حقيقة ادعائهم، ولتفضح طويتهم فهم "لا يسمعون حيث لا يصدّقون ما سمعوه ولا يفهمونه حقَّ فهمِه فكأنهم لا يسمعونه رأسًا"[٢]. وقد جاء الطباق بين (سمعنا) (لا يسمعون) تأكيدًا لصفة الادعاء فيهم، فيزيد المتلقي منهم نفورًا.

كما أن "تقديم المسند إليه على المسند الفعلي للاهتمام به ليتقرر مفهومه في ذهن السامع فيرسخ اتصافه بمفهوم المسند، وهو انتفاء السمع عنهم"[٣].

وفي مجيء الفعل في صيغة المضارعة إفادة بأن أولئك المدعين مستمرون في عدم السمع، أو الفهم والإذعان.

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ) اعترضت هذه الآية تتابع سياق النداءات القرآنية للمؤمنين؛ فزادت الصورة في النداء الثاني تفصيلًا، وبيانًا معجزًا، فهي عند أبي السعود "استئنافٌ مَسوقٌ لبيانِ كمالِ سوءِ حالِ المشبه بهم مبالغةً في التحذير وتقريرا للنهي إثرَ تقريرٍ"[٤]، فمثلت هذه الصورة

(١) الكشاف ٢/٢٠٩.
(٢) تفسير أبي السعود ٤/١٥.
(٣) التحرير والتنوير: ٩/٣٠٤.
(٤) تفسير أبي السعود ٤/١٥..

البيانية تصعيدًا جديدًا لحدة الخطاب، وشدته في التأديب، والتربية لشهود بدر وللأمة بعدهم إلى يوم الدين. و"المشبهون بالصم البكم هم "الَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ" شُبهوا بالصم في عدم الانتفاع بما سمعوا.. وشبهوا بالبكم في انقطاع الحجة والعجز عن رد ما جاءهم به القرآن، فهم ما قبلوا ولا أظهروا عذرا عن عدم قبوله"(١)

وزاد من قبح صورة المشبه به والتنفير منها تأكيد شدة الانحطاط عن منزلة البهائم في قوله (إِنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عَندَ الله) أن مدعي الاستماع والفهم – في علم الله – أحط منزلة من البهائم، وأعظم شرًّا منهم؛ ذلك لاشتراكهما في صفتي الصمم والبكم، إلا أن المنافقين والكافرين زادوا عن البهائم بأن عطَّلوا فضيلة العقل التي ميزهم بها الله عن الحيوان، أي عقل النظر والتأمل والتقبل لما جاء به الله ورسوله. " وذلك نهاية الذم، وغاية التقبيح للكفرة المجرمين"(٢)

لذا، رأى ابن عاشور هذه الجملة جاءت تعريضًا بالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون بأنهم يشبهون دواب صماء بكماء.

كما تكمن عظمة هذا التشبيه في دقة العلاقة بين طرفيه، فالصمم والبكم في البهائم ليس مطلقًا، فالبهائم ليست صماء حقيقة؛ إذ الصَّمَمُ: انْسِدادُ الأُذن وثِقَلُ السمع، فمنها ما هو أرهف سمعًا، وأقوى استقبالا للأصوات من الإنسان، وليست البهائم بكماء حقيقة بمعنى الخَرَس، فلكل منها لغته، وقد تكون أبعد صوتًا من الإنسان، غير أنها لا تفهم حقيقة ما تسمع من كلام البشر، وتعجز عن النطق بما يفيد، وعن التعبير بما تريد. وفي تقديم الصمِّ على البكم فائدة بأن السكوت عن النطق بالحق فروع من عدمِ سماعِهم له.

(١) التحرير والتنوير: ٣٠٦/٩.

(٢) الإبداع البياني في القرآن العظيم، محمد علي الصابوني، ص ١١.

لقد تداخلت الصور البيانية في هذا الخطاب إنعامًا في تقبيح حال طرفيه، وزيادةً في زجر المؤمنين عن التشبه بأحدهما. ففي كلمتي (الصم، البكم) استعارة تصريحية شبه بهما انتفاء الفهم، والعجز عن الرد والاحتجاج. لتوضيح المعنى وبيان الفكرة، ثم شبه مدَّعي الاستماع من الكفار والمنافقين بالبهائم الصم البكم، لتأتي الصورة في مجملها تعريضًا بحال المشبَّهين، وزجرًا للمؤمنين أن يكونوا مثلهم.

– كما أن في الوصف بقوله تعالى: (الذين لاَ يَعْقِلُونَ) تحقيقاً لكمال سوءِ حالِهم فإن الأصمَّ الأبكمَ إذا كان له عقلٌ ربما يفهم بعضَ الأمور ويُفهمُه غيرُه بالإشارة ويهتدي بذلك إلى بعض مطالبِه، وأما إذا كان فاقدًا للعقل أيضاً فهو الغايةُ في الشرّية وسوءِ الحال وبذلك يظهرُ كونُهم شراً من البهائم حيث أبطلوا ما به يمتازون عنها وبه يفضّلون على كثير من خلق الله عزَّ وجلَّ فصاروا أخسّ من كل خسيس"[1]

ويزيد من تقبيح الصورة، وشدة وقعها على المخاطبين من المؤمنين العطف بجملة (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ) سواء أكانت معطوفة على المشبه به في جملة (إن شر الدواب عند الله الصم البكم إلخ) أم كانت معطوفة على المشبه في قوله: (كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون)؛ حيث "أخبر تعالى بأن عدم سماعهم وهداهم إنما هو بما علمه الله منهم وسبق من قضائه عليهم فخرج ذلك في عبارة بليغة في ذمهم.

(١) تفسير أبي السعود ١٥/٤.

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ) والمراد لأسمعهم إسماع تفهم وهدى"[١] تُعد "(في) للظرفية المجازية التي هي في معنى الملابسة، ومن لطائفها هنا أنها تعبر عن ملابسة باطنية"[٢]

– أما قوله تعالى: (وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا) فمعناه "ولو فهَّمهم لتولوا وهم معرضون بالقضاء السابق فيهم ولأعرضوا عما تبين لهم من الهدى"[٣]، وهنا يلاحظ أن من أدوات القوة والشدة في الأسلوب استعمال (لو) الشرطية التي عرفت عند النحاة (الصُّهَيْبية)[٤] حيث "يكون الجواب مقررا على كل حال من غير تعرض لأولوية نحو (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا).. والمقصود في هذا القسم تحقيق ثبوت الثاني (الجواب)، وأما الامتناع في الأول (الشرط) فإنه وإن كان حاصلا لكنه ليس المقصود"[٥] أي أن الحق سبحانه يثبت لهم التولي والإعراض على كل حال، سواء سمعوا ففهموا وانتفعوا أو لا، فزاد صورتهم بذلك ذمًا، وقبحًا.

وفيه استعارة تصريحية شبه فيها انتفاعهم بالفهم بالإسماع، بغرض توضح الفكرة، والمعنى: لو أفهمهم، لتولوا معرضين عما تبين لهم من الهدى، وكأن "جِبلَّتهم لا تقبل دعوة الخير والهداية والكمال، فلذلك انتفى عنهم الانتفاع بما يسمعون من الحكمة والموعظة والإرشاد، فكانوا كالصم، وانتفى عنهم أن تصدر منهم الدعوة إلى الخير والكلام بما يفيد كمالًا نفسانيًا فكانوا كالبكم"[٦]

---

(١) البحر المحيط ٥/٣٠٠.

(٢) التحرير والتنوير: ٩/٣١١.

(٣) البحر المحيط ٥/٣٠٠.

(٤) الصهيبية نسبة إلى قول عمر ﷺ: "نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه".

(٥) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ص ٣٤٢.

(٦) التحرير والتنوير: ٩/٣١١.

– كما وقعت جملة (وَهُمْ مُعْرِضُونَ) حالًا من ضمير (تولوا) بصيغة الجملة الاسمية؛ "للدلالة على تمكن إعراضهم أي إعراضًا لا قبول بعده"[١]، وهو المعنى المجازي المراد من التولي. وإجمالًا يمكن القول: إن "هذه الأوصاف كناية عن انتفاء قبولهم للإيمان وإعراضهم عما جاء به الرسول ﷺ"[٢]

(١) التحرير والتنوير: ٣١١/٩.

(٢) البحر المحيط ٣٠٠/٥.

# المبحث الرابع

## خطاب الدعوة إلى اتقاء الفتن

"يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)"

### • السياق الخاص

بعد أن أقنع الله المخاطبين من المؤمنين بوجوب الثبات عند لقاء زحف المشركين، ثم عاد إلى أمرهم بالطاعة وتحذيرهم من تمثُّل أحوال الذين يقولون سمعنا وهم لا يسمعون، "أعقب ذلك بالأمر بالاستجابة للرسول إذا دعاهم إلى شيء، فإن في دعوته إياهم إحياء لنفوسهم، وأعلمهم أن الله يكسب قلوبهم بتلك الاستجابة قوى قدسية".[1]

وأُولى بواعث الشعور بأن الخطاب على غير المتوقع من حال المؤمنين، أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا أسرع الناس استجابة لله ولرسوله، حين دعاهم إلى الخروج طواعية لطلب العير، وحين استشارهم في النفير، وحتى حين نزل الوحي لتقسيم الغائم بينهم. فما المقصد من هذا الخطاب الشديد؟!

• ١

(١) التحرير والتنوير: ٣١١/٩.

- **المقصد**

امتزج التحذير بالتهديد والوعيد في هذا الخطاب للمؤمنين، فقد قصد إلى "تحذير المؤمنين من كل خاطر يخطر في النفوس: من التراخي في الاستجابة إلى دعوة الرسول ﷺ، والتنصل منها، أو التستر في مخالفته"(١)، كما قصد إلى تهديدهم تصريحًا وتعريضًا بأن عاقبة الإعراض عن دعوة الرسول عقاب شديد في الدارين، ثم عاد لتذكيرهم بأن ما ينعمون به من قوة، وتأييد، ونصر، ورزق إنما هو من الله وحده؛ كسرًا لشأفة العجب بالنفس، أو الغرور بالنِّعَم.

- **خصائص الصورة القرآنية**

تحقيقًا للتناسب بين مقاصد الخطاب القرآني ومعطياته النصية في هذه الآيات بدأها الحق سبحانه بقوله:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) سبقت الإشارة في الخطابين السابقين إلى فائدة البدء بالنداء، لا سيما للبعيد (يا أيها) وإلى فائدة تعريف المخاطبين باسم الموصول (الذين آمنوا) وأثر صلته في تحقيق الغرض منه، أو التوطئة لذاك الغرض كالتعليل بأن الإيمان هو ما يقتضي ثقة المخاطبين في عناية الله بهم، وحذرهم من وعيده لهم، وامتنانهم لعطائه وفضله عليهم.

ثم بدأت شدة الأسلوب وقسوته تتضح معالمها من خلال التراكيب الآتية وما تعبر عنه من صور حقيقية.

ففي قوله تعالى: (اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ) يُظهر هذا الفعل الكلامي (الأمر) كأن المخاطبين بمضمونه كانوا معرضين عنه، أو متثاقلين عن الانقياد له، فدخل

(١) التحرير والتنوير:: ٩/٣١٥.

عليه حرفا (السين والتاء) للدلالة على المبالغة والتأكيد[١]، وهذا نمط شديد اللهجة في سياق المنتصرين من أهل بدر.

ويلاحظ إصرار الخطاب القرآني على تفصيل ذلك الأمر بالاستجابة زيادة في المشقة النفسية، والتأديب، وهو ما يتضح في إعادة حرف الجر اللام بعد واو العطف في قوله: (وللرسول) إشارة إلى أن تعلق المعطوف بفعل الاستجابة يختلف عن تعلق المعطوف عليه، وفي هذا التفصيل من الإيحاء بثقل عبء الإجابة على المخاطبين ما لا يخفى، إذ أوجب عليهم إجابتين، وكأنه وقع منهم فيما سبق تقصيران.

كما أفاد إعادة حرف اللام التفصيل بين الحقيقة والمجاز في الإجابتين؛ ذلك "أن استجابة الرسول ﷺ أعم من استجابة الله لأن الاستجابة لله لا تكون إلا بمعنى المجاز وهو الطاعة بخلاف الاستجابة للرسول ﷺ فإنها بالمعنى الأعم الشامل للحقيقة وهو استجابة ندائه، وللمجاز وهو الطاعة فأريد أمرهم بالاستجابة للرسول بالمعنيين كلما صدرت منه دعوة تقتضي أحدهما". [٢]

وعلى الرغم من التفصيل السابق أفرد الخطاب القرآني ضمير الفاعل في الجملة (إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)؛ للدلالة على أن الدعاء صادر عن الرسول ﷺ حقيقة، وليس هذا الشرط قيدًا للاستجابة، "ولكنه تنبيه على أن دعاءه إياهم لا يكون إلا إلى ما فيه خير لهم وإحياء لأنفسهم"[٣]، ولذا، فإن اللام في (لما يحييكم) تعليلية؛ والمعني: أي لأجل إحيائكم.

---

(١) رأى أبو حيان: أن الأمر دال على الوجوب، وهو مرجوح عندي وفق معطيات السياق. ينظر: البحر المحيط ٣٠١/٥.

(٢) التحرير والتنوير: ٣١٢/٩.

(٣) المرجع السابق.

ويلاحظ تأكيد فعل الدعاء بدخول (إذا) على صيغة الماضي، في حين دلت صيغة المضارعة في (يحييكم) على أن أسباب الحياة الكريمة في الدارين متجددة مستمرة، تتجاوب مع المقبلين عليها، وتبتعد عن المعرضين عنها.

ويرى بعض المفسرين أن للفعل (يحييكم) دلالتين: معنوية ومادية، أي "استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهٍ ففيه الحياة الأبدية والنعمة السرمدية، وقيل: لما يحييكم هو مجاهدة الكفار لأنهم لو تركوها لغلبوهم وقتلوهم"[1] أي أن هذه الجملة "تحريض على القتال بعد الأمر به بقوله (استجيبوا)". [2]

فإذا قُصد بالإحياء دلالته المعنوية من الإيمان، والهداية، والنصر، ففي قوله (يحييكم) استعارة تصريحية سر جمالها توضح الفكرة وتأكيد المعنى، حيث يشبه دعوة النبي ﷺ بالحياة ينعم بها من يسير على هداها، ويشقى حتى الموت من يعرض عنها، أو يستخف بها.

ويعد النصف الأخير من الآية أمة واحدة في الإيحاء بشدة الأسلوب وقسوة التأديب والتأنيب للمسلمين عامة وللبدريين خاصة، وذلك في كل كلمة وجملة منه، كما تشير إليه الدلائل الآتية:

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) "يُقَالُ حَالَ الشيءُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ يَحُولُ حَوْلًا وتَحْوِيلًا أَي: حَجَز.. وَكُلُّ مَا حَجَز بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَدْ حَالَ بَيْنَهُمَا حَوْلًا"(٣)، ومن ثم، احتمل الخطاب بهذه الآية معانٍ عدة، لكنه إجمالا

(١) البحر المحيط ٣٠٢/٥.

(٢) الكشاف ٢٠٩/٢.

(٣) لسان العرب ١٨٧/١١.

"جارٍ مجرى التهديد والوعيد"[١]، كما أن فيه "حثٌّ على المبادرة إلى إخلاص القلوبِ وتصفيتِها قبل إدراك المنيةِ"[٢]، وقد تآزرت على بيان ذلك دلائل عدة:

ففي حين رجَّح الطبري أن يكون المعنى حقيقيًا، وهو أن الله تعالى "أملك لقلوب عباده منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء"[٣] يرى أبو السعود – وأؤيده في رؤيته– أن الخطاب يُحمل على المجاز فهو "تمثيلٌ لغاية قربِه تعالى من العبد.. أو تصويرٌ وتخييلٌ لتملّكه على العبد قلبَه بحيث يفسخ عزائمهُ ويغيّر نياتِه ومقاصدَه ويحول بينه وبين الكفر إن أراد سعادتَه"[٤] ويرى البيضاوي أن في الخطاب كناية عن المعاني السابقة. [٥]

والظاهر أن "الحيلولة بين الإنسان وقلبه من باب (الاستعارة التمثيلية) شبه تعالى تمكنه من قلوب العباد، وتصريفها كما يشاء، بمن يحول بين الشيء والشيء، بطريق (الاستعارة التمثيلية) وهي استعار لطيفة"[٦] أو "شبه عِلْمَ الله بذلك بالحائل بين شيئين في كونه أشد اتصالًا بالمحول عنه من أقرب الأشياء إليه.. وجيء بصيغة المضارع يحول للدلالة على أن ذلك يتجدد ويستمر" . [٧]

وقد "افتتحت الجملة بـ(اعلموا) للاهتمام بما تتضمنه، وحث المخاطبين على التأمل فيما بعده، وذلك من أساليب الصور البليغة أن يفتتح بعض الجمل المشتملة على خبر أو طلب فهم بـــ (اعلم أو تعلم)؛ لفتا لذهن المخاطب. وفيه تعريض

(١) مفاتيح الغيب ٤٧١/١٥.
(٢) تفسير أبي السعود ١٦/٤.
(٣) تفسير الطبري ٤٧١/١٣.
(٤) تفسير أبي السعود ١٦/٤.
(٥) ينظر: تفسير البيضاوي ٥٥/٣.
(٦) الإبداع البياني في القرآن العظيم. ص ١٠٨.
(٧) التحرير والتنوير: ٣١٥/٩.

بغفلة المخاطب عن أمر مهم فمن المعروف أن المخبِر أو الطالب ما يريد إلا علم المخاطب فالتصريح بالفعل الدال على طلب العلم مقصود للاهتمام" [١]

(وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) تكرر التأكيد بـ (أنَّ) ليعززي في نفس المؤمنين الشعور بأن أفعالهم يوم بدل تدل على التردد في مضمون الخبر، وهي أمارة أخرى على حدة الأسلوب وشدة الخطاب الموجه للمؤمنين.

ومن دلائل تهديد المخاطبين ووعيدهم تقديم (إليه) متعلق (تحشرون) وقد أفاد ذلك التقديمُ القصرَ والاختصاص، "وهذا الاختصاص للكناية عن انعدام ملجأ أو مخبأ تلتجئون إليه من الحشر إلى الله؛ فكنَّى عن انتفاء المكان بانتفاء محشور إليه غير الله بأبدع أسلوب" [٢]، وفي هذا "ترغيب شديد في العمل وتحذير عن الكسل والغفلة".[٣]، و"حضٌّ على المراقبة والخوف من الله تعالى والبدار إلى الاستجابة له"[٤].

* * * *

ثم يزداد الخطاب شدة، وتتعاظم وطأته على قلوب المؤمنين لاسيما البدريون منهم حين يحمّلهم الحق –سبحانه– مسؤولية إقرار العصاة المعتدين على حالهم، فإما أن يأخذوا على أيديهم، أو أن يهلكوا مثلهم، ذلك أنه "عقب تحريض جميعهم على الاستجابة، المستلزم تحذيرهم من ضدها بتحذير المستجيبين من إعراض المعرضين، ليعلموا أنهم قد يلحقهم أذى من جراء فعل غيرهم إذا هم لم يقوموا عوج قومهم، كيلا يحسبوا أن امتثالهم كاف إذا عصى دهماؤهم، فحذرهم فتنة

(١) التحرير والتنوير: ٣١٤/٩.
(٢) المرجع السابق، ٣١٦/٩.
(٣) مفاتيح الغيب ٤٧٣/١٥.
(٤) البحر المحيط ٣٠٢/٥

تلحقهم فتعم الظالم وغيره"[١]، فقال سبحانه: (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) وسواء كان الخطاب للصحابة عامةً، أو لأهل بدر خاصة، فقد جاء الأمر بالتقوى فعلا كلاميًا إنجازيًا قُصد به التهديد والوعيد، ثم تبعه معموله (فتنة) نكرة لتفيد العموم؛ تعزيزًا لمقاصد الكلام في نفس المخاطبين، حيث أتاح التنكير للذهن تصور عِظَم هذه الفتنة المهلكة وطبيعتها، وحاصل معناه عند المفسرين يرجع إلى الذنب مطلقًا، أو افتراق الكلمة، واضطراب الآراء، واختلال السير، وحلول الخوف، والحذر في نفوس الناس[٢].

فإن "هذا الخطاب ظاهره العموم باتقاء الفتنة التي لا تختص بالظالم بل تعم الصالح والطالح. وكذلك روي عن ابن عباس قال: أمر المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب. ففي البخاري والترمذي أن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده، وفي مسلم من حديث زينب بنت جحش سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث»[٣] " [٤]

وانقسمت آراء المفسرين في توجيه قوله تعالى (لَا تُصِيبَنَّ) بناء على تحليلهم النحوي، فمنهم من رأى أن الجملة "جواب قسم محذوف، والجملة موجبة؛ فدخلت النون في محلها، ومطلت اللام فصارت لا، والمعنى: لتصيبن،

(١) التحرير والتنوير: ٣١٦/٩.

(٢) ينظر: الكشاف ٢١١/٢، التحرير والتنوير: ٣١٥/٩.

(٣) صحيح البخاري. محمد بن إسماعيل البخاري، ١٣٨/٤. صحيح مسلم. مسلم النيسابوري، ٢٢٠٧/٤.

(٤) البحر المحيط ٣٠٣/٥.

ويؤيد هذا قراءة (لَتُصِيبَنَّ)[١] وفي ذلك وعيد للظالمين فقط "[٢]، ورأى آخرون أن "حرف (لا) نهي بقرينة اتصال مدخولها بنون التوكيد المختصة بالإثبات في الخبر وبالطلب، فالجملة الطلبية: إما نعت لفتنة بتقدير قول محذوف.. وقد اقتضاه مقام المبالغة في التحذير هنا والاتقاء من الفتنة فأكد الأمر باتقائها بنهيها هي عن إصابتها إياهم، لأن هذا النهي من أبلغ صيغ النهي بأن يوجه النهي إلى غير المراد نهيه تنبيها له على تحذيره من الأمر المنهي عنه في اللفظ، والمقصود تحذير المخاطب بطريق الكناية..

ويجوز أن تكون جملة: لا تصيبن نهيًا مستأنفًا تأكيدًا للأمر باتقائها مع زيادة التحذير بشمولها من لم يكن من الظالمين" [٣]

وأراني مرجِّحًا الرأي الثاني في أن الفعل الكلامي في هذا التركيب أسلوب نهي أفاد التهديد والتحذير، وهو غرض يناسبه عموم الدلالة على شمول العذاب، وليس قصره على الظالمين وحدهم، وكأن المعنى اتقوا فتنة لا تصيبنكم خاصة على ظلمكم، لأن الظلم أقبح منكم من سائر الناس[٤]، وهو ما يتوافق عندي مع مقتضيات السياق، والمقصد الخاص والعام من الخطاب من الزجر والتأديب، والوعيد.

---

(١) من قراءة: علي وزيد بن ثابت، وأبي جعفر محمد بن علي، والربيع بن أنس. ينظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها. أبو الفتح عثمان بن جني، ٢٧٧/١.

(٢) المرجع السابق ٣٠٥/٥، وينظر: البيضاوي ٣/ ٥٥.

(٣) التحرير والتنوير: ٣١٧/٩، ٣١٨.

(٤) ينظر: الكشاف ٢١٢/٢. والبيضاوي ٥٦/٣، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ٥٩٣/٥.

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) بدأت هذه الجملة بالفعل الإنجازي الأمر (اعلموا)، وهو فعل كلامي قصد به الاهتمام بمضمون الجملة، وإظهار شدة التحذير، والتأكيد على المقصد العام من الخطاب وهو التهديد والوعيد. خاصة أن الحق -سبحانه- أكد الجملة بـ (أنَّ)، ثم مجيء المسند إليه اسمًا صريحًا (الله)؛ استحضارًا لعظمته وقوته وجبروته في مؤاخذه الذاهلين عن أمره وأمر رسوله، ولا يخفى أثر التصريح بالوصف (شديد) لعقاب الله تعالى، فكان للتعبير عن قسوة الأسلوب وشدته دلائل عدة، كونه عقاب، ووصفه بالشدة، وإسناده إلى الله عز وجل.

* * * *

ثم انتقل الخطاب إلى نمط آخر من الشدة والزجر، يُعرِّض فيه بسوء مسلك من عصى الله ورسوله، المنكرين لفضله، والمتناسين لنعمه، لا سيما نِعَم الأمن بعد الخوف، والنصر بعض الهزيمة، وطيب الرزق بعد العالة والفقر. فقال تعالى: "وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (الأنفال: ٢٦)

فبدأ هذا الخطاب بأسلوب الأمر (اذْكُرُوا) زجرًا للمخاطبين، لما يوحي من نسيانهم لأَنْعُم الله عليهم، فأراد الحق تذكيرهم بوقت أن كانوا قليلي العدد، ضعفاء يهيمون في الأرض، يخافون من أعدائكم، لا أرضًا تأويهم، ولا دولة تحميهم.

وقد عبَّر بالجملة الإسمية "للإيذان باستمرار ما كانُوا فيه من القلة وما يتبعها من الضعف والخوف"[1]، في حين جاء الفعل (تَخَافُونَ) في صيغة المضارع للدلالة على تجدد حالة الخوف في نفوسهم كلمَّا حاول كفار قريش النيل منهم.

(١) تفسير أبي السعود ١٧/٤.

وفي "مجيء هذه الخطابات بعد وصفهم بالذين آمنوا إيماء إلى أن الإيمان هو الذي ساق لهم هذه الخيرات كلها، وأنه سيكون هذا أثره فيهم كلما احتفظوا عليه كُفُوه من قبل سؤالهم"(١)

(أن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ) لقد كشف هذه التركيب (في صورة المضارع المسبوق بأن) خبيئة قلوب المؤمنين قبل بدر، وكيف كان خوفهم من مداهمة المشركين مستحوذا على تفكيرهم، غائرًا في نفوسهم؛ فالخَطْفُ الأَخْذُ في سُرْعةٍ واسْتِلابٍ، وجاء مشددًا للدلالة على شدة الخطف وقوته، "وهو هنا مستعار للغلبة السريعة لأن الغلبة شبه الأخذ، فإذا كانت سريعة أشبهت الخطف.. أي يأخذكم أعداؤكم بدون كبرى مشقة، ولا طول محاربة إذ كنتم لقمة سايغة لهم، وكانوا أشد منكم قوة، لولا أن الله صرفهم عنكم، وقد كان المؤمنون خائفين في مكة، وكانوا خائفين في طرق هجرتيهم، وكانوا خائفين يوم بدر، حتى أذاقهم الله نعمة الأمن من بعد النصر يوم بدر. والناس مراد بهم ناس معهودون وهم الأعداء، المشركون من أهل مكة وغيرهم، أي طائفة معروفة من جنس الناس من العراب الموالين لهم." (٢)

"فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ". استهل الخطاب القرآني تعداد نعمه سبحانه بحرف الفاء الدال على سرعة العطاء الإلهي، فالإيواء: الرجوع والعودة إلى المأوى وهو المنزل الذي يوفر الحماية والحفظ والرعاية، وأَيَّدَه الله أي قَوَّاه، وفيه مجاز مرسل حيث استخدمت اليد في القوة لعلاقة السببية، والطيبات التي رزق الله بها المؤمنين قد تكون الغنائم بعد الحرب في بدر، وما

(١) التحرير والتنوير: ٩/٣١٩.

(٢) التحرير والتنوير: ٩/٣٢٠.

تلاها من غزوات وحروب، وقد تكون عموم الرزق الذي يتقوى المرء بـــه فـــي حياته.

وفي قوله: (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) دلالة على الصلة الوثيقة بـــين الشـــكر ودوام النعم، وأول أبواب الشكر تذكر النعم، وهو المقصد من الآية، كأن الحق ســـبحانه لفت إلى ضرورة التذكر لأنعم الله، ليدوم الشكر عليها، ما يحفظها، وينميها، وفي ذلك تعريض بأن انقطاع تذكر النعمة مؤذن بنسيان الشكر عليها، ومن ثم فقدانها.

# المبحث الخامس

## خطاب النهي عن الخيانة

"يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)"

### • السياق الخاص والمقصد

بعد أن أمر الحق سبحانه المؤمنين بالاستجابة لله ورسوله، وحذرهم من الفتن التي لا تهلك الظالمين خاصة، وتوعدهم بالعذاب الشديد يوم القيام إن وقعوا في تلك المعاصي العلنية، وأعرضوا عن تلك التوجيهات، استأنف -سبحانه- هذا الخطاب للمؤمنين "يحذرهم من العصيان الخفي. بعد أن أمرهم بالطاعة والاستجابة لله ولرسوله ﷺ، حذرهم من أن يظهروا الطاعة والاستجابة في ظاهر أمرهم ويبطنوا المعصية والخلاف في باطنه، ومناسبته لما قبله ظاهرة وإن لم تسبق من المسلمين خيانة وإنما هو تحذير".(١)

### • خصائص الصورة القرآنية

بعد أن التقط المسلمون بعض أنفاسهم في ظل المراوحة بين درجات الشدة في الخطاب السابق، يعود أسلوب الخطاب القرآني في هذا المشهد ليستأنف أعلى درجات القوة والشدة في مخاطبة البدريين، فبدأ بقوله تعالى: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ) سبقت الإشارة إلى مقاصد بدء الخطاب بالنداء للبعيد، وتعريف المنادى بجملة الصلة.

(١) التحرير والتنوير: ٣٢١/٩.

(لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ) توحي هذه الآية بأن المؤمنين قوم خانوا رسالتهم السماوية، وأمانة دعوتهم، فاستحقوا لذلك زجرًا عنيفًا، وخطابًا تأديبيًا شديدًا، فقد يحمل النهي على حقيقته إذا كان الخطاب لعامة المؤمنين، لكنه في سياق خطاب البدريين فهو فعل كلامي قصد به الترهيب والتحذير من الخيانة في مستقبل عهدهم، لأنه لم يثبت عنهم من الخيانة شيء، بل ضربوا أعظم الأمثلة في المحافظة على ما حذرت منه الآية من ألوان الخيانة. والمعنى: لا تخونوا الله بأن تعطلوا فرائضه وتقترفوا نواهيه، ولا تخونوا رسوله بأن لا تستنوا به، ولا تطيعوا أمره.

والخيانة من "الخَوْنُ: أَن يُؤْتَمَنَ الإِنْسانُ فَلَا يَنْصَحَ.. وأَصْلُ الخَوْنِ النَّقْصُ؛ لأَنَّ الخائِنَ ينقصُ المَخونَ شَيْئًا ممَّا خانَهُ فِيهِ"(١) ومن تعريفات الخيانة أنها: "التَّفْرِيطُ فِي الأَمانَةِ. وقيل: الخِيانَة مُخالَفَة الحَقِّ بنقْضِ العهْدِ فِي السِّرِّ"(٢).

وقد عُطف (الرسول) على اسم الجلالة (الله) دلالة على أنه لما كانت طاعة الله من طاعة رسوله، فإن خيانة الله تتحقق بخيانة رسوله، فضلا عما يضفيه التفصيل على الخطاب من شدة الزجر، وقسوة التأنيب، كأن البدريين وقعوا في خيانتين لا خيانة واحدة.

**(وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ)**

أي: (ولا تخونوا أماناتكم) بدليل ما روي في قراءة عبد الله ولا تخونوا أماناتكم(٣)، وقد أُعيد فعل (تخونوا)، ولم يكتف الخطاب بحرف العطف الواو؛

(١) تاج العروس ٣٤/٤٩٩.
(٢) المرجع السابق ٣٤/٤٩٩.
(٣) مفاتيح الغيب ١٥/٤٧٥.

"للتنبيه على نوع آخر من الخيانة فإن خيانتهم الله ورسوله نقض الوفاء لهما بالطاعة والامتثال، وخيانة الأمانة نقض الوفاء بأداء ما ائتمنوا عليه".[١]

وفي الجملة إيجاز بحذف مضاف أي: أصحابَ أماناتكم[٢]، ويمثل هذا الحذف صورة حقيقية قوية التأثير في المخاطبين؛ إذا الأصل في التعبير أن الأمانة لا تُخان، إنما يخان أصحاب الأمانات؛ وذلك "لقصد تبشيع الخيانة بأنها نقض للأمانة، فإن الأمانة وصف محمود مشهور بالحسن بين الناس، فما يكون نقضًا له يكون قبيحًا فظيعًا"[٣].

"وإنما أضيفت الأمانات إلى المخاطبين مبالغة في تفظيع الخيانة، بأنها نقض لأمانة منسوبة إلى ناقضها"[٤]

(وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) جملة حالية من واو الجماعة في (تخونوا)، ولا يُتوهم منها تخفيف وطأة الخطاب على المسلمين، أو تلمس الأعذار لهم، إنما أسهمت هذه الجملة في تشديد أسلوب مخاطبتهم، والاستمرار في تأنيبهم وتأديبهم، إذا لا يُفهم من الجملة أن تقييد النهي عن الخيانة عند العلم بها فحسب، إنما "هي حال كاشفة والمقصود منها تشديد النهي، أو تشنيع المنهي عنه لأن النهي عن القبيح في حال معرفة المنهي أنه قبيح يكون أشد، ولأن القبيح في حال علم فاعله بقبحه يكون أشنع" [٥]

(١) التحرير والتنوير: ٣٢٣/٩.
(٢) الدر المصون ٥٩٥/٥.
(٣) التحرير والتنوير، ٣٢٣/٩.
(٤) المرجع السابق.
(٥) المرجع السابق ٣٢٤/٩.

ومن أمارات شدة الخطاب كذلك حذف المفعول به للفعل (تعلمون) فله توجيهان: أن يُقدر للفعل مفعولا به، أي "وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ تبعة ذلك ووباله، وقيل وأنتم تعلمون أنكم تخونون، يعنى أن الخيانة توجد منكم عن تعمد لا عن سهو. وقيل: وأنتم علماء تعلمون قبح القبيح وحسن الحسن."(١)، أو "أن تجعل فعل تعلمون منزلا منزلة اللازم، فلا يقدر له مفعول، فيكون معناه «وأنتم ذوو علم» أي معرفة حقائق الأشياء، أي وأنتم علماء لا تجهلون الفرق بين المحاسن والقبائح"(٢)، وعلى كلا التقديرين فإن الزجر قوي، وحدِّة الخطاب ترهيبًا وتحذيرًا جلية واضحة.

ثم بدأ الخطاب في الآية التالية بأسلوب الأمر (وَاعْلَمُوا)؛ لاقتلاع ما يمكن التعلل به للوقوع في أحد المحاذير المذكورة الظاهرة والباطنة. فهو فعل كلامي إنجازي جِيْء به "للاهتمام.. وهذا تنبيه على الحذر من الخيانة التي يحمل عليها المرء حب المال وهي خيانة الغلول وغيرها"(٣)

كما تمثل جملة (أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) صورة حقيقية بليغة البيان، حيث يُعد تقديم الأموال على الأولاد بعد نسبتهما إلى المخاطبين رضي الله عنهم، من قبيل تقديم أكثر العوامل دافعيةً للخيانة وهو المال، لا سيما أن سبب خلاف المسلمين يوم بدر كان حول قسمة الغنائم، كما عبر سبحانه بصيغة الجميع قصدًا إلى التنوع في (الأموال) لتشمل كافة ما يملكه الإنسان، والكثرة في (الأولاد) فهي أدعى إلى زيادة الخوف، وتيسير الخيانة. ثم عطف الأولاد على الأموال، للجمع بين أبرز دافعين للخيانة وهما: المال والأولاد.

---

(١) الكشاف ٢/٢١٣.

(٢) التحرير والتنوير، ٩/٣٢٤.

(٣)المرجع السابق.

وعلى هذا يمكن القول: "إنه تعالى أمرهم أن لا يخونوا الغنائم، وجعل ذلك خيانة له، لأنه خيانة لعطيته وخيانة لرسوله لأنه القيّم بقَسْمِها، فمن خانها فقد خان الرسول، وهذه الغنيمة قد جعلها الرسول أمانة في أيدي الغانمين.. قال: ويحتمل أن يريد بالأمانة كل ما تعبد به، وعلى هذا التقدير: فيدخل فيه الغنيمة وغيرها"(١)

وتخفيفاً لحدة الأسلوب وقسوة الخطاب تأتي جملة (وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) لتستحضر رحمات الله وعظيم عفوه ومغفرة، فجاءت (أن) لتفيد التأكيد، وإتيان اسمها اسم الجلالة ظاهرًا؛ لتعظيم من سينسب الأجر إليه، وتنكير كلمة (أجر) زيادة في التعظيم بعد النعت الصريح به، والإغراء بعظم ما أعد الله تعالى لهم من ثواب في الآخرة.

(١) مفاتيح الغيب ١٥/٤٧٥.

## المبحث السادس

## خطاب أجر المتقين

"يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)"

- **السياق الخاص**

بعد أن حذر الحق -سبحانه- المؤمنين من العصيان، ومن الخيانة، والافتتان بالأموال والأولاد، ورهَّبهم من عاقبة أمرهم، وعذاب ربهم، رغَّبهم في التقوى، ووعدهم بالنصر والتمكين، ومغفرة الذنوب إن داموا على التقوى، والتزموا متطلباتها. "ففعل الشرط مراد به الدوام، فإنهم كانوا متقين، ولكنهم لما حُذِّروا مِنَ المخالفة والخيانة ناسب أن تفرض لهم الطاعة في مقابل ذلك.

ولقد بدا حسن المناسبة إذ رتبت على المنهيات تحذيرات من شرور وأضرار.. ورتب على التقوى: الوعد بالنصر ومغفرة الذنوب وسعة الفضل"[١].

- **المقصد**

كانت التقوى كالطاعة، وحسن الاستجابة، وأداء الأمانات صفات أصيلة في أصحاب النبي ﷺ، ضرب البدريون منهم أروع الأمثلة عليها، لكن سياق الخطاب القرآني يقود إلى مقصد سامٍ، في أسلوب شديد اللهجة، إلا أنه كان أخف حدة في هذا الخطاب، حيث سِيق " للحث على التقوى وتحقق فائدتها والتعريض بالتحذير من التفريط فيها، فلا يحصل التكفير ولا المغفرة بأي احتمال."[٢]

- **خصائص الصورة القرآنية**

يتصل أول هذا الخطاب بآخر الخطاب السابق من جهة الأسلوب، فيبدو هذا

(١) التحرير والتنوير ٣٢٧/٩.

(٢) المرجع السابق.

الخطاب أخف حدة من سابقيه؛ لأنه إلى الترغيب أقرب منه إلى الترهيب، وإن لم يفارقه مقصد التحذير والتنبيه الكامن في عناصر الخطاب ومكونات الصورة القرآنية، كما يتضح في البيان الآتي.

(يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُواْ) افتتح هذا الخطاب النداء للبعيد اهتمامًا بالمخاطبين وبمضمون الخطاب كما سبق بيانه، وفي "تكريرُ الخطابِ والوصفِ بالإيمان لإظهار كمالِ العنايةِ بما بعده والإيذانِ بأنه مما يقتضي الإيمانُ مراعاتَه والمحافظةَ عليه كما في الخطابين السابقين"(١)

(إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا) جاء الشرط بـ (إن) وهي في الأصل تفيد الشك، غير أن توظيفها في هذا السياق "لا يفيد إلا كون الشرط مستلزما للجزاء، فأما أن وقوع الشرط مشكوك فيه أو معلوم فذلك غير مستفاد من هذا اللفظ"(٢)، وأرى أنه يمكن حمل الشك على فعل الشرط لا جزائه، مما يسهم في حدة الخطاب، وشدته، وكأنه بَدَرَ من الصحابة رضوان الله عليهم ما يمنع الجزم بتقواهم في كل حال.

الفرقان مصدر كالغفران، والخسران، وهو ما يميز بين شيئين متشابهين، وكل ما يميز بين الحق والباطل فهو فرقان، ولذا سمي به القرآن الكريم، وأطلق على الحُجَّة، وعلى النصر وهو المراد في هذا الخطاب؛ "لأنه يفرق بين الحق والباطل وبين الكفر بإذلال حزبه، والإسلام بإعزاز أهله... أو تفرقة بينكم وبين غيركم من أهل الأديان، وفضلا ومزية في الدنيا والآخرة." (٣)

(١) تفسير أبي السعود ١٨/٤.

(٢) مفاتيح الغيب. ٤٧٦/١٥.

(٣) الكشاف ٣١٤/٢.

كما احتمل الفرقان في هذه الآية معان عدة ذهب إليها المفسرون، منها: التمييز بين المؤمنين والمشركين في الأحوال التي يستحب فيها التمايز في أحوال الدنيا نفسيا وماديًا، وقيل: معناه المخرج.(١)

ويفيد تنكير كلمة (فرقان) العموم، "ولما كان اللفظ مطلقًا وجب حمله على جميع الفروق الحاصلة بين المؤمنين وبين الكفار فنقول: هذا الفرقان إما أن يعتبر في أحوال الدنيا أو في أحوال الآخرة"(٢)، ويمكن حمل دلالة التنكير على تعظيم؛ لنسبته إلى رب العزة –سبحانه–، ولذا "فاختيار الفرقان هنا، لأنه اللفظ الذي لا يؤدي غيره مؤداه في هذا الغرض وذلك من تمام الفصاحة"(٣).

وفي (لَكُمْ) تخصيص للفرقان بأحوال المؤمنين، وكأنه عام لشتى أمور حياتهم، ما يورثهم طمأنينة القلب، وهدوء البال، وضمان النصر والغلبة على المشركين، والتبصر في أمور حياتهم، وبناء دولتهم.

وفي التعبير بصيغة المضارع في (يَجْعَلْ، يُكَفِّرْ، يَغْفِرْ) إشارة إلى تجددها وحدوثها كلما تجدد من المؤمنين ما يوجب تحقق مضمون تلك الأفعال.

"وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ" في هذه الفاصلة" تذييل وتكميل، وهو كناية عن حصول منافع أخرى لهم من جراء التقوى"(٤)، ويعد هذا التذييل من مفرِّجات الهم، ومخففات أثر الشدة في هذا الخطاب، لاسيما أنه ساقه إليهم خاليًا من أية تأكيدات عدا اسمية الجملة.

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن. ابن جرير الطبري، ٤٨٩/١٣. فتح القدير. محمد بن الشوكاني، ٣٤٦/٢.

(٢) مفاتيح الغيب ٤٧٥/١٥.

(٣) التحرير والتنوير ٣٢٦/٩.

(٤) التحرير والتنوير ٣٢٦/٩.

# المبحث السابع

# خطاب الثبات والإخلاص ووحدة الصف

"يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧)"

## • السياق الخاص

جاء هذا الخطاب معترضًا مشهدًا من مشاهد الاستعداد قُبيلَ غزوة بدر، بدأ بقوله تعالى: "إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا.." [الأنفال: ٤٤]، وانتهى قوله تعالى: "وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ.." [الأنفال: ٤٨]، وذلك أن الحق سبحانه ذكَّر النبيﷺ وأصحابه بتثبيته لهم بمعجزة التخيُّل العددي التي بدأت بالرؤيا التي أرى الله فيها نبيه الكافرين قليلي العدد؛ فبشر بها أصحابه لتطمئن قلوبهم، ثم بين -سبحانه- مقصد هذه الرؤيا وهو الخشية من فشل المسلمين وتنازعهم لو رأوا أعداد الكافرين على حقيقتها، لكن الله سلَّم.

وقبل أن يستأنف القرآن الحديث عما أصاب الكفار عند اللقاء من الهزيمة، وبعده من الخذلان "أقبل في هذه الآية على أن يأمرهم بما يهيئ لهم النصر في المواقع كلها، ويستدعي عناية الله بهم وتأييده إياهم، فجمع لهم في هذه الآية ما به قوام النصر في الحروب." [1]

(١)التحرير والتنوير ٢٩/١٠.

- **المقصد**

كأن الله –تعالى– أراد أن يحذر المسلمين من فقدان أسباب النصر على الأعداء، والثبات في مواجهتهم في قابل غزواتهم، وأن يتذكروا دوما أن هزيمة المشركين في أحد كانت بتأييد الله وحده، ومن ثمَّ "علمهم إذا التقوا بالفئة وهي الجماعة من المحاربين نوعين من الأدب: الأول– الثبات وهو أن يوطنوا أنفسهم على اللقاء ولا يحدثوها بالتولِّي. والثاني– أن يذكروا الله كثيرا"(١)، وذلك من خلال أسلوب قاسي، وخطاب شديد خشية العجب أو التفريط.

- **خصائص الصورة القرآنية**

تعبيرًا عن قسوة التأديب، وشدته اجتمع في هذا الخطاب عدد من الأساليب الإنشائية، نداء، ونهيان، وأربعة أفعال أمر، فضلًا عن عدد من الأساليب الخبرية، وقد كان لكل دلالته على مستوى المفردة والتركيب والصورة، من تلك الدلالات ما يأتي:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) لا يختلف الغرض من النداء في هذا الخطاب عما سبق سواء في استخدام (يا) حرفَ نداء، أو مجيء المنادى اسمًا موصولا تذكر صلته المخاطبين بصفة الإيمان للاهتمام بمضمون الخطاب من جهة، ولجذب انتباه المخاطبين من جهة أخرى.

(إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً) "اللِّقاء: المُلاقاة وتَوَافِي الاثنين متقابِلَين"(٢)، "وقد غلب إطلاقه على لقاء خاص وهو لقاء القتال، فيرادف القتال والنزال"(٣)، فهي كلمة دقيقة التصوير لمعناها، ذلك أن اللقاء يصور أولى مراحل القتال، تليها مرحلة

(١) مفاتيح الغيب ٤٨٩/١٥.

(٢) مقاييس اللغة ٢٦١/٥.

(٣)التحبير والتنوير ٢٩/١٠..

النزال، فمرحلة القتال، وهي المرحلة التي يغلب فيها الثبات أو الفرار، لكن الحق –سبحانه– أراد من المؤمنين التزام الثبات والذكر منذ بداية المعركة، ما يدفع به هواجس الفرار بعد خوضها.

وقد جاءت أداة الشرط وفعل الشرط الماضي لإفادة تحقق الوقوع، وفي والمراد بـ (فئة): الجبهة الكافرة، وفي تنكيرها غرض بلاغي هو العموم والشمول في وصف تلك الفئة، وليس في أصل معناها، والمعنى "إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً: إذا حاربتم جماعة من الكفار، وترك أن يصفها لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار"(١)، وكأنه تعريض بمستقبل ربما لقي فيه المسلمون بعضهم بعضًا.

(فَاثْبُتُوا) ورد جواب الشرط فعلا كلاميًا في صيغة الأمر غرضه الحث، والتوجيه، والمعنى أي: أقيموا على حالكم في مواجهتهم، لا تضعفوا، ولا تُولوا الأدبار، متمتعين بقوة القلب، والجسد، ورسوخ اليقين في نصر الله، وفي هذا الفعل استعارة تصريحية تبعية شبه فيها المداومة على الفعل بالوقوف في المكان دون تحرك؛ "إذ ليس المراد عدم التحرك، بل أريد الدوام على القتال وعدم الفرار"(٢).

وقد أرجع هذا الفعل ذهن المخاطبين لمضمون النداء الأول" يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ". غير أنه زاد عليه العطف بالفعل الأمر (وَاذْكُرُوا اللَّهَ) للغرض نفسه، وفي الفعلين تعريض بالفارين من الزحف، والمنشغلين وقت المعركة بالغنائم عن ذكر الله ورسوله، وكأنه يحذر مما وقع من طائفة الرماة في غزوة أحد حينما انشغلوا بجمع الغنائم عن الالتزام بالتوجيهات الصريحة من النبي ﷺ بالثبات في مواقعهم.

(١) الكشاف ٢/٢٢٦، وينظر: تفسير أبي السعود ٤/٢٥.

(٢) التحبير والتنوير ١٠/٣٠.

وفي قوله: (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) دلالة أخرى على حدة الأسلوب وشدته، فكأن الله –تعالى– أراد أن يستأصل من قلوبهم شأفة الثقة في تحقق النتائج إذا توفرت أسبابها؛ لما قد يفضى إلى العجب والغرور، فقد صور الفلاح رجاءً مرهونًا بحول الله وقوته.

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) هذه هي المرة الثالثة التي يتكرر فيها الأمر الصريح بطاعة الله ورسوله في خطاب الله للمؤمنين في سورة الأنفال[1]، فضلا عن التعبير عنه بالاستجابة في الخطاب الثالث منها. وهو تكرار يؤكد شدة الحرص على ألا يعصى المؤمنون الله ورسوله بأية حال من الأحوال، ففي تلك الطاعة صلاح دينهم، ودنياهم، والفوز بعظيم الأجر في أخراهم.

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ..) إنه نهي شديد اللهجة للمؤمنين، وهو فعل كلامي غرضه تمام التحذير من انكسار المؤمنين وهزيمتهم، ومن الأسباب المؤدية إلى ذلك كالفُرقة والخلاف بينهم، وما يترتب على ذلك من الضعف حال المواجهة مع العدو.

أما قوله (فَتَفْشَلُواْ) فيجوز أن يكون جوابًا للنهي منصوبًا، فهو أثر من آثار التنازع، ويجوز أن يكون عطفًا عليه[2]، أي أن الفشل آفة قائمة بذاتها ليست مسببة عن غيرها فاستحقت لذلك نهيًا خاصًا عنها. وهو فعل غاية في دقة التعبير، بديع التصوير لمعناه، فالفَشَل هو "الفزعُ والجُبْن والضَّعْف.. والفَشِل: الرَّجُلُ الضَّعِيفُ الْجَبَانُ"[3]

(١) ينظر: سورة الأنفال الآيات: ١، ٢٠، ٢٨، ٤٦.
(٢) ينظر: تفسير ابي السعود ٤/٢٥.
(٣) لسان العرب ١١/ ٥٢٠.

(وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) الرِّيحُ: نَسِيم الهواء، وكذلك نَسيم كل شيء[1]، قال الشوكاني: "الريح: القوة والنصر، كما يقال: الريح لفلان إذا كان غالبًا في الأمر، شبهت في نفوذ أمرها بالريح في هبوبها"[2]، "والريح: الدولة، شبهت في نفوذ أمرها وتمشيه بالريح وهبوبها، فقيل: هبت رياح فلان إذا دالت له الدولة ونفذ أمره" [3]، وربما كان "وجه الشبه في هذه الاستعارة هو أن الريح لا يمانع جريها ولا عملها شيء فشبه بها الغلب والحكم"[4]، وعلى هذا ففي الجملة استعارة تصريحية سر جمالها التجسيم.

"وقيل المرادُ بها الحقيقةُ فإن النُصرةَ لا تكون إلا بريح يبعثها الله تعالى وفي الحديث نصرت بالصبا وأهلكت عادٌ بالدَّبور"[5]، وهو رأي لا أرجحه بناء على معطيات السياق؛ لأن النصر في بدر لم يكن بالريح، ولا حتى الهزيمة في أحد كانت بسببها، إنما كانت بمعصية أمر الرسول ﷺ الذي أدى إلى تنازع المسلمين؛ وضعفهم، ومن ثم هزيمتهم.

(وَاصْبِرُوا) الأمر بالصبر كغيره من الأفعال الكلامية في الخطاب لم يقصد بها حقيقة المعنى، لأن شيئا منها لم يقع من المخاطبين، ولعل قصده التوجيه والنصح والإرشاد إلى المثابرة وتحمل لأواء الجهاد، وكبد قتال الأعداء.

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) ذُيّلت الآية بهذه الجملة التي تقوم مقام التعليل للأمر بالصبر، وهي توحي بتنزيل العالم بمضمون الخبر منزلةَ المتردد فيه؛ حيث سِيق

---

(١) لسان العرب ٤٥٥/٢.

(٢) فتح القدير ٣٣٤/٢.

(٣) الكشاف ٢٢٦/٢. وكرر هذا المعني للريح مفاتيح الغيب ٤٨٩/١٥.

(٤) التحبير والتنوير ٣٠/١٠.

(٥) تفسير ابي السعود ٢٥/٤، وقد أشار إلى ما ورد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ". صحيح البخاري ٣٣/٢.

خبر معية الله للصابرين من عباده مؤكَّدًا بـــ (إنَّ)، واسمية الجملة. كما لا يخفى أثر التصريح باسم الله تعالى في بيان عظيم تلك المعية، والأجر الكبير على ذلـــك الصبر في ذاك المقام.

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُـــدُّونَ عَـــنْ سَبِيلِ اللَّهِ) تضيف هذه الآية توجيهًا صارمًا جديدًا لا يخرج عن المقاصد العامـــة لخطاب المؤمنين في هذه السورة، وهو التحذير من العجب والغـــرور، وتقبـــيح التَّلهّي بلعاعات الدنيا عن ثواب الآخرة؛ لما تتسبب فيه تلك الصفات من هـــزائم للدين، وزوال للدولة.

فهذا الخطاب "جيء في نهيهم عن البطر والرئاء بطريقة النهي عن التشبه بالمشركين إدماجا للتشنيع بالمشركين وأحـــوالهم[1]، وتكريهـــا للمســـلمين تلـــك الأحوال، لأن الأحوال الذميمة تتضح مذمتها، وتنكشف مزيد الانكشاف إذا كانـــت من أحوال قوم مذمومين عند آخرين، وذلك أبلغ في النهي، وأكشف لقبح المنهي عنه.. فنُهوا عن أن يشبهوا حال المشركين في خروجهم لبدر إذ خرجـــوا بطـــرا ورئاء الناس، لأن حق كل مسلم أن يريد بكل قول وعمل وجه الله، والجهاد مـــن أعظم الأعمال الدينية" [2].

(بَطَراً وَرِئَآءَ) البَطَرُ: الطُّغْيَانُ بالنِّعْمَة، أَو عِنْد النِّعْمَـــة، واســـتُعْمِلَ بمعنَـــى الكِبْر[3]، والرئآء من الرياء، يقال: رَاءَيْت الرجلَ مُراآةً ورِياءً: أَرَيْته أَنِّـــي عَلَـــى

(١) حين همَّ أهل مكة بالخروج لحماية العير، أتاهم رسول أبى سفيان وهم بالجحفة: أن ارجعوا فقد سلمت عيركم، فأبى أبو جهل وقال: حتى نقدم بدرًا نشرب بها الخمور، وتعزف علينـــا القيان ونطعم بها من حضرنا من العرب. فذلك بطرهم ورئاؤهم الناس بإطعامهم. الكشـــاف ٢٢٧/٢.

(٢) التحبير والتنوير ٣٢/١٠.

(٣) تاج العروس ٢١٢/١٠.

خِلَافِ مَا أَنَا عَلَيْهِ. والمرائي: المنافق[١].فهما "منصوبان على المفعول له، ويجوز أن يكونا مَصْدرين في موضع نصبٍ على الحال من فاعل (خرجوا) أي: خَرَجُوا بَطِرِين ومُرائين."[٢] أي أن الصيغتين تفيدان المبالغة في وصف حال المشركين عند خروجهم؛ فهما من النعت بالمصدر، وكأنهما من أخلاقهم الجِبليَّة.

(وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) هذه الصفة الثالثة لمشركي مكة، لكنها تتميز عن البطر والرياء من حيث المعنى والصيغة، فالمعنى: "أي: خرجوا بطرين مرائين صادين عن سبيل الله، أو للصد عن سبيل الله. والصد: إضلال الناس، والحيلولة بينهم وبين طرق الهداية. ويجوز أن يكون ويصدون: معطوفا على يخرجون، والمعنى: يجمعون بين الخروج على تلك الصفة والصد"[٣]

ولما حدث خروج مشركي مكة لملاقاة المسلمين مرة واحدة كان التعبير عنه بصيغة الماضي (خرجوا)، لكن قوله تعالى (ويصدون) جاء بصيغة المضارعة للإشارة إلى أن حدوث وتجدد محاولات صدهم الناس عن سبيل الله التي لم تبدأ بخرجهم للمعركة، ولن تنتهي بانتهائها. يقول الفخر الرازي عن النعت باسمية (بطرًا ورئاء) وبالفعل المضارع (يصدون): "إن أبا جهل ورهطه وشيعته كانوا مجبولين على البطر والمفاخرة والعجب، وأما صدهم عن سبيل الله فإنما حصل في الزمان الذي ادعى محمد عليه الصلاة والسلام النبوة. ولهذا السبب ذكر البطر والرئاء بصيغة الاسم، وذكر الصد عن سبيل الله بصيغة الفعل"[٤].

---

(١) لسان العرب ٢٩٦/١٤.

(٢) الدر المصون ٦١٥/٥، ٦١٥.

(٣) فتح القدير ٢/ ٣٦٠.

(٤) مفاتيح الغيب ٤٩١/١٥.

أما (سَبِيلِ اللَّهِ) فالمراد به طريق الهدى الذي دعا إليه، وهو دين الله تعالى، وما اشتمل عليه من أوامر ونواهٍ، وعلى هذا ففي التركيب استعارة تصريحية سر جمالها التجسيد، حيث شبه دين الله بالسبيل: أي الطريقُ وما وَضَحَ منه، وهو ما يعمق الإحساس ببشاعة الصفات التي اتصف بها المشركون، وحذر الله المؤمنين أن يتصفوا بها.

(وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) أي لا يخفى عن علمه تعالى شيء من عملهم، ومن ثم فهو مجازيهم عن عملهم، "وذلك كالتهديد والزجر عن الرئاء والتصنع"[1]. فهذه الجملة تحمل معنى الزجر والتهديد والوعيد إلى المشركين بطريق مباشر.

وفي "إسناد الإحاطة إلى اسم الله تعالى مجاز عقلي، لأن المحيط هو علم الله تعالى فإسناد الإحاطة إلى صاحب العلم مجاز"[2]، كما تحمل المعاني نفسها إلى المؤمنين بطريق غير مباشر من خلال الأنعام في تقبيح صورة المشركين في حالهم ومآلهم، ما يدعم التحذير من التشبه بهم، أو الاتصاف بطباعهم.

(١) مفاتيح الغيب ١٥/٤٩٠.

(٢) التحبير والتنوير ١٠/٣٤.

# المبحث الثامن

## الفاصلة القرآنية والصورة الصوتية

بوصف القرآن الكريم خطابًا إبلاغيًا فإنه لا يمكن إغفال القيمة الصوتية[١] في تحليل خطابه للمؤمنين في سورة الأنفال لأنها من جهة إحدى مظاهر الصورة القرآنية، ومن جهة أخرى تشير إلى طبيعة الخطاب وفق مقاصده، وسياقه إن كان هادئًا أو هادرًا، شديدًا أو لينًا، عاليًا أو خافتًا من خلال محاولة تحليل الجرس الصوتي لمفردات، وتراكيب ذلك الخطاب فضلًا عن التأمل في الكلمات ذات الدلالات الصوتية المختلفة، ذلك "أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنوع الصوت، بما يخرجه فيها مدًّا، أو غنة، أو لينًا، أو شدة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة، في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها، ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع، أو الإطناب والبسط، بمقدار ما يكسبه من الحدة، والارتفاع، والاهتزاز، وبُعد المدى"[٢].

وسعيًا إلى زيادة فرضية البحث رسوخًا، وفكرته بيانًا تخيرت للتحليل مما يمثل المظهر الصوتي في خطابات سورة الأنفال: الفواصلَ القرآنية، والبناء الصوتي للآيات.

---

(١) المراد بالقيمة الصوتية: هي تلك الخصائص التي تتمايز بواسطتها الأصوات ويتعلق بها نوع من المعاني يسمى المعاني الطبيعية، التي لا توصف آثارها بأنها عرفية ولا ذهنية لأنها في الواقع مؤثرات سمعية انطباعية ذات وقع على الوجدان". البيان في روائع القرآن. تمام حسان، ص ٢٥٧.

(٢) الإعجاز القصص في القرآن. ص ١٥٠.

أولًا- أما الفاصلة القرآنية فهي "كلمة آخر الآية، كقافية الشعر وقرينة السجع"[١]، سواء تماثلت حروفها أم لم تتماثل، وهي تمثل قيمة صوتية جمالية ترتبط ارتباطًا وثيقا بموسيقى الخطاب القرآني، ولا تنفك عن قيمتها في التشكيل الصوتي للصورة القرآنية؛ إذ "تأتي الفاصلة في نهاية الآية؛ لتحقق للنص جانبًا جماليًا لا يخطئه الذوق السليم، لأننا مهما يكن من شيء نحس أنها تضفي على النص قيمة صوتية منتظمة، ينقسم سياق النص بها إلى وحدات أدائية، تعد معالم للوقف والابتداء، وتتضافر مع الإيقاع، فينشأ من تضافرهما أثر جمالي لا يبعد كثيرًا عما نحسه من وزن الشعر وقافيته"[٢]، فضلًا عن تَميُّزِ الفاصلة بتحررها من قيود الوزن والقافية.

والفاصلة القرآنية "لا تدل بالضرورة على تمام المعنى، ومن ثم تصبح وظيفتها في القرآن غير نحوية، ولا دلالية، فإذا لم يكن للفاصلة غرض نحوي، ولا دلالي، فماذا يكون الغرض منها إذاً؟.. إنها قيمة صوتية جمالية ترتبط أشد الارتباط بموسيقى النص القرآني"[٣]، و" قد لا يراد الملحظ الصوتي مجردًا عن الأبعاد الأخرى في فواصل الآيات، فقد يجتمع في الفاصلة الغرض الفني، بجنب الغرض الديني، فتؤدي الفاصلة غرضين في عمل مزدوج"[٤]

من ذلك ندرك أن "مهمة الفاصلة القرآنية.. مهمة لفظية معنوية بوقت واحد، إنها مهمة فنية خالصة، فلا تفريط في الألفاظ على سبيل المعاني،

(١) البرهان في علوم القرآن. بدر الدين الزركشي، ص ٢٧٠/٢٧١.
(٢) البيان في روائع القرآن. د. تمام حسان ص ٢٧٩.
(٣) المرجع السابق ص ٢٧٥.
(٤) الصوت اللغوي في القرآن. د. محمد حسين علي الصغير، ص ١٥٥.

ولا اشتطاط بالمعنى من أجل الألفاظ"[١] خلافًا للسجع في البيان التقليدي الذي تكون عنايته بجانب الألفاظ مقدمة على ما سواها.

فكأن الفاصلة القرآنية تحمل شحنتين في آن واحد: شحنة الإيقاع الموسيقي، وشحنة المعنى الكامن في الآية المختومة بها، ما يعني أن الفاصلة تتنوع وفق طبيعة الخطاب القرآني لا سيما من حيث الشدة واللين، كما يتضح في التحليل الآتي لفواصل آيات الخطاب القرآني للبدريين في سورة الأنفال.

في البدء أود الإشارة إلى أن سورة الأنفال المشتملة على خمس وسبعين آية قد انتهت فواصلها بالحروف والنِّسب الآتية (ن= ٥٢%)، (م= ٢٥.٣%)، (الراء= ١٣.٣%)، (الباء= ٥.٣%)، (الطاء= ١.٣%)، (القاف= ١.٣%)، (الدال=١.٣%)[٢]، وعلى الرغم من أن مجموع آيات الخطاب محل الدراسة أربع عشرة آية إلا أنها قد اشتملت على رويِّ فواصل السورة عدا حرفي القاف والدال، ومن الطريف أن نسبة تكرار كل حرف في آيات الخطابات تقترب أو تساوي نسبة ورودها في السورة كاملة، وكأن آيات خطاب الله تعالى للمؤمنين تمثل إجمالي المقاصد التي تحدثت عنها السورة، وأن ما تحمله من دلالات صوتية تنسحب نتائجه على كافة آيات السورة.

أما عن الأثر المباشر لفواصل الخطاب في التعبير عن شدة الخطاب، وقوته، بما يتوافق مع مقاصده العامة والخاصة فيوضحه تحليل النماذج الآتية:

ففي الخطاب الأول: "يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦)"

(١) الصوت اللغوي في القرآن. د. محمد حسين علي الصغير، ص ١٥٢.

(٢) ينظر: الفاصلة القرآنية في سورة " الأنفال"، سمير عوض الله رفاعي، ص ١٢.

وردت الفاصلة الأولى (الأدبار) جزءًا من تركيب الآية، ومكملة لبنائها، بينما جاءت الفاصلة الثانية (المصير) بعد تمام المعنى فكانت توشيحًا[1] لمعنى الآية (أو لقرينتها)، وتذييلا يؤكد ذم مآل الفَّارين يوم الزحف، ويزيد صورتهم تقبيحًا، ويجتمعان في مجيئهما في سياقهما النحوي الطبيعي، وقد انفردت فاصلة هذا الخطاب دون غيره بأن ختمت بحرف (الرَّاء) المسبوق بحرف المد (الألف) في الفاصلة الأولى، وهي الفاصلة الوحيدة في السورة بهذا النمط، وبحرف المد (الياء) في الثانية، ولكل منهما دلالة.

أما حرف الراء فهو حرف جهر، وانفتاح، وصفير، وتكرار وهي صفة توحي بما يتطلبه التحذير والتنبيه من إلحاح، وإعادة، وتكرار. كما أنه بينيٌّ بين الرخاوة والشدة، وتلك الصفات تتيح مساحة صوتية عريضة تكسب الصوت علوًّا ووضوحًا، ومن بديع التكون الصوتي للفاصلة الأولى سبق الراء بحرف الألف الذي يزيد امتداد الصوت وانفتاحه، وكأنه ينادي على الفَارِّين من مكان بعيد، بينما سَبْق الفاصلة الثانية بالياء فيه نوع من امتداد الصوت مع ضيقه تصويرًا لانغماس أولئك الضالين في نار جهنم. ولعل في اختلاف الحرفين قبل الراء ما يباعد الانسجام والتناغم الموسيقي في إيقاع الفاصلتين، إيحاء بأن المشهد ليس طربيًّا يستميل الأذن والقلب، بل هو مشهد عقلي يثير الفكر، ويبعث على التأمل والحذر.

---

(١) التوشيح هو أحد أنواع العلاقة بين الفاصلة وقرينتها، "ويسمى بِهِ لِكَوْنِ نَفْسِ الْكَلَامِ يَدُلُّ عَلَى آخِرِهِ نَزَلَ الْمَعْنَى مَنْزِلَةَ الْوِشَاحِ وَنَزَلَ أَوَّلَ الْكَلَامِ وَآخِرَهُ مَنْزِلَةَ الْعَاتِقِ وَالْكَشْحِ اللَّذَيْنِ يَجُولُ عَلَيْهِمَا الْوِشَاحُ.. وَسَمَّاهُ ابْنُ وَكِيعٍ الْمَطْمَعَ لِأَنَّ صَدْرَهُ مَطْمَعٌ فِي عَجُزِهِ". ينظر: البرهان في علوم القرآن. أبو عبد الله الزركشي، ٩٥/١. و الإتقان في علوم القرآن. جلال الدين السيوطي، ٣٥٥/٣.

ويلاحظ كذلك أنه على مستوى المقطع تقاربت مقاطع الفاصلتين غير أن الثانية زادت على الأولى بصامت واحد، عدا ذلك تركبت كلتا الفاصلتين من مقطعين صغيرين، وآخرَيْن متوسطين.

وفي الخطاب الثاني: "يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)"

يلاحظ في فواصل هذا الخطاب جميعها أنها جاءت بعد تمام معاني الآيات، فكانت تذييلاً أضفى على الخطاب معنى إضافيًا أثرى قيمة الفاصلة من جهتي المعنى والموسيقى معًا، إذ جاءت كافة الفواصل جزءًا من جُمَلٍ حالية، وليست جزءًا من تركيب الآية، كما اتحد نمطها بأن ختمت جميعها بالواو والنون وهما من حروف الجهر والانفتاح فضلا عن الغنة في النون، مع شيء من الضيق في حرف الواو يعطى قوة مد دافعة للصوت. ولا شك أن هذا النمط يخلف في نفس المخاطب تأثيرًا وتمكينًا واضحين؛ إذا "كثر في القرآن الكريم ختم كلمة المقطع من الفاصلة بحروف المد واللين، وإلحاق النون، وحكمته: وجود التمكن من التطريب. بذلك، قال سيبويه رحمه الله: أما إذا ترنموا فإنهم يلحقون الألف والواو والياء ما ينون، وما لا ينون، لأنهم أرادوا مد الصوت"(١).

ومما زاد من قوة الأثر الإيقاعي للفواصل في هذا الخطاب توازن إيقاعها وتكراره المبني على تساوي المقاطع الصوتية وتماثلها في الكلمة، ما ينتج عنه انتظام الفواصل بين نوعي النبر الأولي والثانوي في الفاصلة، وهو ما يلقي في

(١) البرهان في علوم القرآن. ٦٨/١.

أذن السامع شعورًا بالإلحاح في المعنى، وتأكيد الغرض منه. فقد تكونت الفواصل في هذا الخطاب من مقاطع قصيرة ومتوسطة مثل: (تسمعون)

تس/ م/ عو/ن = ص ح ص/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح[1].

لاسيما أن توالي تلك الفواصل كان يعزز التحذير المقصود من الآيات. كذلك لا يخفى من الأثر الموسيقى لفواصل هذا الخطاب اشتراك كلماتها في عدد من الحروف زيادة على الواو والنون، كحرف العين في كافة الفواصل، وحرف الميم في ثلاثة منها وكلاهما من حروف الجهر والانفتاح.

وفي الخطاب الثالث: "يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)"

جاءت الفاصلة في هذا الخطاب امتداد للفاصلة في الخطاب السابق عليها حيث انتهت الآيتان الأولى والثالثة بالنون المسبوقة بالواو، كما تساوتا في المقاطع الصوتية، ومن ثم كان لهما ذات الأثر المعنوي والموسيقي الذي سبق بيانه في الخطاب الثاني. لكن ما يميز هذا الخطاب هو اعتراض تواتر الفواصل المتماثلة المقطع والخواتيم من الآية (٢٠) إلى الآية (٢٧) بفاصلة جديدة في التكوين الصرفي، والصوتي، والحرفي (العقاب) وكأنها جاءت لتقطع استرسال طرب المخاطب؛ لتنبه ذهنه، وتوقظ حواسه، وتجدد أمامه الصورة القبيحة لمن عصى الله ورسوله، وتُعلي من نبرة التأديب والتحذير بسوء مآلهم. فحين تلتزم فاصلة أو أكثر (الواو والنون) يتوقع المرتل تكرر هذه الفاصلة من جديد، وحين

(١) (ص)= صوت صامت، و (ح)= حركة قصيرة.

يتحقق توقعه يحدث لديه إشباع، فيتطلع مرة ثانية وهكذا دواليك، على أن استمرارية استجابة التوقع وإشباعه قد ينشئان شيئا من الرتابة والملل[1]، فكأنها أحدثت للمخاطب ما يشبه الصدمة للتوقع، "فإن كان ما يحدث هذه الصدمة شيء جديد يثير الاهتمام على نحو مؤكد، فإن الأثر الذي يتولد في نفوسنا هو أثر الشيء الطريف، أما إذا لم يوجد ما يعوض هذه الصدمة، فحينئذ نحس بما في الموضوع من قبح"[2]

فالفاصلة جاءت اسمًا بين فاصلتين من فعلين مضارعين، أما عن أثر الفاصلة في التعبير عن قوة الخطاب وشدته فمرجعه لما يتصف به حرف (الباء) من الجهر، والشدة، والاستعلاء، والإطباق، ثم تأتي صفة القلقلة لتزيده في أذن المخاطب قوة فوق قوتها، فإذا سبق الباء بحرف المد الألف، جمع إلى ما سبق من الصفات امتداد الصوت، واتساع محيطه، فكان لأثر التحذير بتلك الفاصلة ما لم يتوفر لغيرها في نفس المخاطب، ومما زاد من شدة هذه الفاصلة وقوة تأثيرها سبق (القاف) لحرف المد (الألف) وهو حرف يتسم بصفات حرف الباء كافة من الجهر، والشدة، والاستعلاء، والإطباق، والقلقلة

وفي الخطاب السادس: "يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧)"

(١) ينظر: الفاصلة في القرآن الكريم. محمد الحسناوي، مقال نشر بالموقع الرسمي لرابطة أدباء الشام بتاريخ ٢٠٠٥/١٠/٨م.

(٢) الإحساس بالجمال. جروج سانتيانا، ترجمة مصطفى بدوي، ص ١١٦.

اعترض هذا الخطاب مشهدا من المعركة يموج بالاضطراب، والتقلب، والتنازع الداخلي لدى النبي ﷺ وصحبه إعدادًا وتخطيطًا، ولدى الكفار بطرًا ورياء الناس من جهة أخرى؛ لذلك لم تتفق فواصل ذاك المشهد من الآية (٤٢) إلى الآية (٥٢)، بل جاءت كل آية بفاصلة مختلفة، إلا أنها تمثل ائتلافًا مع قرينتها (آيتها)، وكأن كل آية ترسم جانبا ذا طبيعة خاصة من صورة المعركة.

وعلى الرغم من اعتراض هذا الخطاب ذلك المشهد المائج، إلا أن فواصله حافظت على الإيقاع، والعلاقات ذاتهما مع قريناتها، فكانت فواصلها (تفلحون)، (الصابرين)، (محيط) ذات أنماط مختلفة من حيث التركيب والأصوات، والمقاطع. ولا يمنع ذلك أن الفواصل الثلاثة لم تدخل في التركيب الأساس لمعاني الآيات، بل جاءت بعد تمامها فأكسبتها معنى آخر إضافيًا يناسب كل معنى منها.

وكأن الفاصلة تعبر عن درجات شدة مختلفة حملها الخطاب القرآني إلى المؤمنين، بدأت خفيفة في الآية الأولى المنتهية برجاء الفلاح إن ثبتوا عند اللقاء، ولأن المعنى مسبوق بتفصيل أكثر في الخطاب الأول، أراد الحق سبحانه أن تنتهي الفاصل بنهاية مألوفة تجمع بين يتسم رويها بالجهر والانفتاح والغنة في حرف النون، مع امتداد الصوت وجهوريته عند ردف الفاصلة بالواو المدية.

أما الآية الثانية فتحذرهم من الضعف والتفرق حال تنازعهم وعصيانهم الله ورسوله، وغالبًا ما يكون ذلك أثناء المعركة أو بعدها كما حدث بعد غزوة بدر، ولما زِيد على مشهد الأمر بالطاعة التحذيرات السابقة احتاج الخطاب نبرة أعلى، وصوتًا أشد، فكانت النون مع الياء في جملة اسمية مؤكدة بـ (إن)، والتشديد على حرف الصاد بعد تكراره في (اصبروا/ الصَّابرين).

وفي الآية الثالثة كان التحذير شديدًا من التشبه بالمشركين في البطر والرياء، فناسب ذلك فاصلة تهديدية، منتهية بالطاء المتصفة بالجهر والاستعلاء،

والشدة والإطباق، والقلقة، وفي كونها ردفت بالياء المدية تمتع الصوت بامتداد في محيط أوسع.

ثانيًا- أما عن الصورة الصوتية في بناء مفردات الخطاب الإلهي لأهل بدر فيلاحظ أنها أدت دورًا كبيرا في الإشعار بشدة الخطاب، وقسوته على المخاطبين، كما يتضح ذلك في صفات الحروف، وتضعيفها، ودور حروف المد فيها، ثم في طبيعة المقاطع الصوتية التي غلبت على مفردات ذاك الخطاب، ولأضرب مثلًا لتحليل البناء الصوتي للخطاب الأول: " يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦)" حيث كانت أكثر الأصوات تكرارا في بناء مفردات الخطاب (ت، أ، د، ذ، ز، م، ق، ل، ر، خ، ض) وهي حروف تشترك جميعها في صفتي (الجهر، والانفتاح)، ويشترك أكثرها في (الشدة، والبينية بين الشدة والرخاوة)، وتميز بعضها في بصفات (القلقلة، والغنة، والصفير، والتكرار)، وجاء قليل من أصوات هذا الخطاب متصفًا (بالهمس، والرخاوة) نحو (ف، ح، ك، ص)، فإذا أضفت إلى ذلك كثرة الحروف المضعفة، كان في ذلك بيان بأن الأصوات في هذا الخطاب كانت عالية، قوية بما يناسب حالة الزجر، والتأديب، والتعنيف، وزاد من حده هذا الزجر كثيرة حروف المد لاسيما الألف في الآية الأولى (١٥) من الخطاب ما أتاح مساحة صوتية واسعة لإيصال الصوت إلى أبعد مدى ممكن لدى المخاطبين، في حين قَلَّت هذه المدود في الآية الثانية (١٦)؛ لأن الاستثناء فيها كان يحتاج إلى شيء من التعقل والتدبر، وإن لم تختف حدة الأسلوب، وشدته.

وأما عن مستوى المقاطع في الصورة الصوتية فيلاحظ أنها كانت بين قصيرة ومتوسطة، مع غلبة المقاطع المتوسطة سواء المغلقة منها أو المفتوحة، وذلك مقابلة بالمقاطع القصيرة. مثال ذلك:إ/ ذا/ ل/ قي/تم/ ال/لذي/ن/ك/ف/روا/زح/فًا/ف/لا/ت/ول/لو/هم/ال/أد/بار/و/من/ي/ول/لهم/يو/م/إ/ ذن/د/ب/ر/ه/ إل/لا/م/ت/حر/رفًا/ ل/ق/تا/لٍ/أو/ م/ت/حي/يزًا/ إ/لى/ف/قد/با/ء/ ب/غ/ض/بٍ/م/ن/ال/لاه/ و/مأ/وا/ه/ج/هن/نم/و/بئ/س/ال/م/صير.

وفي هذا إشارة إلى أن أكثر مقاطع هذا الخطاب كانت مقاطع قوية وهي التي يستغرق النطق بها زمنًا أطول[1]، ما يناسب مقام التأديب والزجر.

(١) ينظر: علم أصوات العربية. محمد جواد النوري وآخرون، ص٢٤٠.

# الخاتمة

بعد معايشة ماتعة لمادة البحث، دراسة، ومناقشةً، وتحليلًا وفق ما يسر الله وأعان، فقد خرج البحث بنتائج وتوصيات، من أهمها:

يعد سبب نزول سورة الأنفال السياق العام والدقيق لها؛ الذي يكشف جانبًا من سر التسمية، وعظمة المشهد الذي بدأت به السورة الكريمة، حيث وقع خلاف بلغ حد التنازع وطلب الاحتكام بين المسلمين حول الأنفال ولا يزال غبار (بدر) يغطى وجوههم ويغشى ثيابهم.

كان المقصد الإلهي الأسمى من السورة وخطابات المؤمنين فيها هو التنبيه على عظم الخطأ، وتقويم المسلك، والتربية الصارمة، والقضاء على العجب والغرور بالنصر، والتذكير بأن الفضل كله لله وحده، حتى لا يقع المسلمون في مثل خطئهم، فيضعفوا وتضيع دولتهم.

كانت النداءات الست للمؤمنين في السورة استشرافًا بما وقع فيه المسلمون في غزوة أحد، ثم في غزوة حنين.

أوضحت دراسة خطابات الله تعالى لأصحاب النبي ﷺ من البدريين أن لكل منها سياقًا ومقصدًا خاصًا كان لهما أثر كبير مع سياق السورة ومقصد العام في توجيه أسلوب الخطاب، وكشف بعض أسرار التصوير القرآني/الفني فيه.

أوضح تحليل عناصر الصورة الفنية في الخطاب القرآني للمؤمنين في سورة الأنفال من المفردات، والتراكيب، والأساليب والصورة الجزئية (الحقيقية منها والخيالية) أنه كان خطابًا شديدًا إلى درجة القسوة، قويًا إلى درجة العنف، زاجرًا إلى درجة العقاب، ما يتناسب مع سياقه، ومقصده.

أفادت الصورة القرآنية أن ثمة مراوحة بين الشدة، والتوسط، واللين في خطابين من السورة من قَبيل التقاط الأنفاس، ليعود الأسلوب سريعًا إلى سابق عهده.

بوصف الخطاب القرآني خطابًا إبلاغيًا كان للقيم الصوتية، أو المظهر الصوتي للصورة القرآنية من حيث الفاصلة القرآنية، أو البناء الصوتي لمفردات الخطاب دور رئيس في دعم الشعور بشدة الأسلوب وقسوته، وفي انسجام الخطاب مع سياقه، ومقاصده.

ومن ثم، يوصي الباحث بأن ينهض عدد من الباحثين بدراسة الخطاب القرآني في تناوله لأحداث السيرة النبوية بما يكشف عن زواياها الخفية، ومقاصدها الإلهية التي تقوِّم حركة الحياة، وترسم للأمة سبل النجاة، من أمثلة ذلك: تناول سورة آل عمران لغزوة أحد، وسورة الأحزاب لغزوة الخندق، وسورة الفتح لصلح الحديبية، أما الهجرة إلى المدينة المنورة فلها في الخطاب القرآني منزلة عظمى؛ لتناثر مشاهدها في طول القرآن الكريم وعرضه.

# قائمة المراجع


١. الإبداع البياني في القرآن العظيم، محمد علي الصابوني، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠٦.

٢. إبلاغية الخطاب القرآني من منظور لسانيات النص –دراسة في سورة البقرة. عبد الكريم حاقة، رسالة لنيل درجة الدكتوراه، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر بسكر، ١٤٣٧ه/ ٢٠١٦م.

٣. الإتقان في علوم القرآن. جلال الدين السيوطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٤. الإحساس بالجمال. جروج سانتيانا، ترجمة مصطفى بدوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.

٥. إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد، تح: محمد حامد الفقي، أحمد محمد شاكر، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٧٢ه ـ١٩٥٣م.

٦. الإحكام في أصول الأحكام أبو الحسن الآمدي، تح: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي– بيروت، د.ت.

٧. أسباب نزول القرآن، علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، تح: كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٩٩١م.

٨. استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية. عبد الهادي ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط١، ٢٠٠٤م.

٩. الإعجاز القصص في القرآن. سعيد عطية مطاوع، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.

١٠. آليات التصوير في المشهد القرآني. قراءة في استطيقا الصورة الأدبية. د. حبيب مونسي. مجلة التراث العربي، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب- دمشق، ع٩١، سبتمبر ٢٠٠٣، رجب ١٤٢٤ه.
١١. أنوار التنزيل وأسرار التأويل(تفسير البيضاوي)، ناصر الدين أبو سعيد البيضاوي، تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.
١٢. البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، ١٤٢٠هـ.
١٣. البرهان في علوم القرآن. بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تح: أبو الفضل الدمياطي، دار الحديث، القاهرة، ط٥، ١٩٩٧م.
١٤. البيان في روائع القرآن. دراسة لغوية أسلوبية للنص القرآني. تمام حسان، علم الكتاب بالقاهرة. ط١، ١٤١٣، ١٩٩٣م.
١٥. تاج العروس من جواهر القاموس. محمّد مرتضى الحسيني الزَّبيدي، تح: عبد الستار أحمد فراج، سلسلة التراث العربي، تصدرها وزارة الإرشاد والإنباء بالكويت، ١٣٨٥ه/١٩٦٥م.
١٦. تجديد المنهج في تقويم التراث، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ٩٩- ط٢، ٢٠٠٥م.
١٧. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤ هـ.
١٨. التصوير الفني في القرآن الكريم. سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط ١٦، ١٤٢٣/٢٠٠٢م.

١٩. التعريض في القرآن الكريم. د. إبراهيم عبد الله الخولي، دار البصائر بالقاهرة، ط١، ١٤٢٥- ٢٠٠٤م.
٢٠. جامع البيان في تأويل القرآن. محمد بن جرير الطبري، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م.
٢١. الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي. محمد بن أحمد القرطبي، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م.
٢٢. جماليات الخطاب في النص القرآني: لطفي فكري الجودي، مؤسسة المختار، القاهرة، ط١ ١٤٣٥ه/٢٠١٤م.
٢٣. الحيوان، عمرو بن بحر الجاحظ، دار الكتب العلمية – بيروت، ط٢، ١٤٢٤ هـ.
٢٤. الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق. محمد عبد المجيد عبد الواحد. بحث ماجستير، جامعة المدينة العالمية – بماليزيا، ٢٠١٤م.
٢٥. الخطاب القرآني والعلاقة بين النص والسياق. خلود العموش، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط١، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨ م.
٢٦. الخطاب القرآني: دراسة في البعد التداولي. مؤيد عبيد أل صوينت. رسالة دكتوراه في كلية الآداب- جامعة المستنصرية، العراق، ٢٠٠٩م.
٢٧. الخطاب والنّص" المفهوم – العلاقة – السلطة"، عبد الواسع الحميري، ط ١، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٨م.
٢٨. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، تح: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، (د.ت).

٢٩. دلالة السياق في القصص القرآني، محمد عبدالله العبيدي، صنعاء، وزارة الثقافة، (د.ت)، ٢٠٠٤م.
٣٠. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود بن عبد الله الألوسي، تح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥م.
٣١. سنن أبي داود، أبو داود سليمان السِّجِسْتاني، تح: شُعَيب الأرنؤوط – محَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م.
٣٢. السنن الكبير، أبو بكر أحمد بن الحُسَين البيهقي، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، ط١، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م.
٣٣. السياق: المفهوم – المنهج – النظرية. طه جابر العلواني، الرابطة المحمدية للعلماء بالمغرب، (بحوث مؤتمر) ٢٠٠٧م.
٣٤. السياق وفهم النص الشرعي: دراسة في الوظيفة والدلالة، مولاي الحسين ألحيان، الرابطة المحمدية للعلماء بالمغرب، الرباط، (بحوث مؤتمر) ٢٠٠٧م.
٣٥. صحيح البخاري. محمد بن إسماعيل البخاري، تح: محمد زهير بن ناصر، دار طوق النجاة، بيروت، ط١، ١٤٢٢ه.
٣٦. صحيح مسلم. مسلم بن الحجاج النيسابوري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠١٠م، ٢٢٠٧/٤.
٣٧. الصوت اللغوي في القرآن. د. محمد حسين علي الصغير، دار المؤرخ العربي، سلسلة موسوعة الدراسات القرآنية (٢) بيروت.

٣٨. علم أصوات العربية. محمد جواد النوري وآخرون، جامعة القدس المفتوحة، ط١، ١٩٩٦م.
٣٩. الفاصلة القرآنية في سورة " الأنفال ": دراسة صوتية تركيبية نصية، سمير عوض الله رفاعي، مجلة كلية الآداب، جامعة الزقازيق – كلية الآداب، ٢٠١٥م.
٤٠. الفاصلة في القرآن الكريم. محمد الحسناوي، مقال نشر بالموقع الرسمي لرابطة أدباء الشام بتاريخ ٢٠٠٥/١٠/٨م.
٤١. فتح القدير. محمد بن الشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٤ هـ-١٩٩٤م.
٤٢. كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، القاهرة، د-ت.
٤٣. كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي التهانوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م.
٤٤. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. أبو القاسم محمود الزمخشري جار الله، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٣، ١٤٠٧ه/ ١٩٨٧م.
٤٥. الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية). أيوب بن موسى الكفوي، تح: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ت.
٤٦. كيف نتعامل مع القرآن العظيم: يوسف القرضاوي، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
٤٧. لسان العرب، جمال الدين ابن منظور، دار صادر – بيروت، ط٣، ١٤١٤ ه.
٤٨. اللغة والمعنى والسياق. جون لاينز، ترجمة عباس صادق الوهاب، وزارة الثقافة والإعلام العراقية، بغداد ١٩٨٧م.

٤٩. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها. أبو الفتح عثمان بن جني، وزارة الأوقاف المصرية- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
٥٠. المحكم والمحيط الأعظم، علي بن إسماعيل بن سيده، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
٥١. معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، الحسين بن مسعود البغوي الشافعي، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي –بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.
٥٢. معجم اللغة العربية المعاصر، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٤٢٩ه/ ٢٠٠٨م.
٥٣. معجم المصطلحات الأدبية. إبراهيم فتحي، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين- تونس، ط١، ١٩٨٦م
٥٤. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. عبد الله بن يوسف جمال الدين ابن هشام، تح: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر – دمشق، ط٦، ١٩٨٥م.
٥٥. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.
٥٦. مفهوم المقاصد وعلاقتها بالخطاب. يونسي فضيلة. الخطاب- دورية أكاديمية محكمة، تصدر عن مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، الجزائر، العدد ١٩/ ٢٠١٥.
٥٧. مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، ت: محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس، عمان، الأردن، ٢٠٠١.

٥٨. مقاييس اللغة. أحمد بن فارس، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، القاهرة، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م،
٥٩. الموافقات، إبراهيم بن موسى بالشاطبي، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن، دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
٦٠. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم. محمد على التهانوي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ١٩٩٦م،
٦١. نحو تفسير موضوعي. محمد الغزالي، دار الشروق، ط٣، ١٩٩٧م.
٦٢. النص القرآني ومنهج السياق، عبد الرحمن بودراع، مجلة الترتيل، مركز الدراسات القرآنية للرابطة المحمدية للعلماء بالرباط، ع٢، ٢٠١٤م.
٦٣. نظرية السياق القرآني (دراسة تأصيلية دلالية نقدية)، المثني عبد الفتاح محمود، عمان، الأردن، دار وائل للنشر، ط١، ٢٠٠٨م.
٦٤. نظرية المقاصد بين الأصوليين واللسانيات التداولية، فطومة لحمادي، رسالة دكتوراه مخطوطة في كلية الآداب واللغات- جامعة محمد خيضر- بسكره، ١٤٣٢ه/ ٢٠١١م.
٦٥. نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: أحمد الريسوني، من إصدارات المعهد العالي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط ٤، ١٩٩٥م.
٦٦. وظيفة الصورة الفنية في القرآن. عبد السلام أحمد الراغب، فصلت للدراسات والترجمة والنشر - حلب، ط١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.